حسن العشماوي

هكذا نربّي أولادنا

دار الفتح

حسن العشماوي

هكذا نربي أولادنا



الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هـذا الكتاب

الحمـد لله رب العالمين، والصـلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الديـــن.

وبعـــد، فقد سبق لدار الفتح للطباعة والنشر أن قامت بنشر بعض تراث المرحوم حسن عشماوي في أوائـل السبعينات وخـاصة كتـابـه القيِّم [مـع القرآن.. زاد الرحلة الأولى في كتاب الله] من فاتحة الكتاب إلى تمام سورة آل عمران، وكتابه الآخـر [قلب آخر.. لأجل الزعيم] مسرحيــة..

مع مناقشة حرّة بعنوان «الفرد العربي ومشكلة الحكم».

وقد أشار الكاتب في كتابه [مع القرآن] أنه كتب مجموعة من الرسائل بعنوان [هكذا نربِّي أولادنا] ويظهر أن بعض هذه الرسائل الخاصة في التربية قد فُقِدَت بعد وفاته، كما فُقِدَتْ بعض الرسائل الخاصة بالتفسير، ولم يبق من هذه الرسائل سوى تفسير سورة الإسراء، والتي سنقوم بنشرها قريباً بإذن الله.

كما أنه لم يبق من رسائل [هكذا نربي أولادنا] سوى هذه الرسائل الثلاث الذي قام الدكتور الفاضل محمد سليم العوّا بتقديمها والتعليق عليها ونشرها في مجلة الشهاب اللبنانية في أوائل عام ١٩٧٥ م.

ويسعدنا أن نقوم اليوم بنشرها في كتاب وتقديمها إلى قرّاء العالم العربي والإسلامي..

■الناشر

تقديـــم

لرسائل ثلاث في التربيـــة

د. محمد سليم العوًا
كلية التربية ـ جامعة الرياض

يسرني أن أقدِّم هذه الرسائل الثلاث في التربية إلى القـراء الكرام والتي كتبهـا المرحـوم الأستاذ حسن العشماوي. وقد كانت هذه الـرسائـل في الأصل حديثاً شخصياً بين الكاتب وزوجته، كتبه وبعث به إليها خلال تنقله ـ مختفياً ـ من مكان إلى آخر في صعيد مصر خلال الفترة من أواخر عام ١٩٥٤ إلى أواخـــر عام ١٩٥٧ م .

كـانت هذه الفتـرة من أقسى الفتـرات التي تعرضت لها جماعة الاخوان المسلمين التي كان رحمه الله ينتمي إليها. . ولم ينج من قسوة هذه

السنين إلّا قليل من أفرادها.. هيأت لهم عناية الله أسباب النجـــاة..

ولعلّ قصة المرحوم الأستاذ العشماوي خلال هذه السنين أن تعرف قريباً حين يتاح لها أن تنشر على الناس..(*) فهو قد كتبها بنفسه.. وصوّر فيها بقلمه وقائع هذه السنين وما سبقها مما أدّى إلى الأحـداث التي توالت فيهـا.. تصـويـراً فيـه من الصدق والدقة، والطرافة والجمال، والإحاطة بكل التفاصيــل ما يجعلني أُمسك عن الإشارة إلى شيء من وقائع هذه الفترة أو أحـداثها ـ على إيمـاني بضرورة أن يعرف القارىء بعض أسرارها ليكمل إدراكه لقيمة هذه الرسائل التي تنشــر اليوم ـ .

وقد يكفيني هنا أن أُسجِّل نقلاً عن الأستاذ حسن العشماوي رحمه الله أن هذه الرسائل وغيرها

(*) نشرت هذه المذكرات في مجلة روز اليوسف في حلقات، ثم قام المكتب المصري الحديث بطبعهـا في كتاب صـدر في القاهرة قبل أعوام [الناشر].

كُتِبَتْ ـ كما يقول ـ «حين قضت عليَّ ظروف حياتي أن أعيش وحيداً ليس معي من أتحدّث إليه، إلاَّ ربِّي أُناجيه، وليس معي من كتاب أقرؤه إلا كتاب الله أتلوه»[1]

وأن أنقل كذلك قوله في موضع آخر «ومرَّت بي بعد ذلك أحداث ظننت معها أنني لن ألقى زوجي وأطفالي... فبدأت أكتب إلى أطفالي بما يناسب سِنّهم، وإلى زوجي لتنقل إليهم حين تسمح سنُّهم بالفهم عني....

لم تكن تلك الرسائل للنشر، وأخشى ألاَّ تجد طريقها إلى المطبعة يوماً، حتى إن استطعت أن أعثر عليها، وأن أجمع شتاتها. لقد كانت حديثاً عائلياً صريحاً، حديث الراغب في أن يسجل أفكاره بصدق، وأن يفتح لأولاده باب الفكر حراً،

---

(١) من مقدمة كتاب «مع القرآن» زاد الرحلة الأولى في كتاب الله للأستاذ حسن العشماوي. نشر دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٧٢ م.

حتى لا يتقيدوا سلفاً بحكم على الأمور»(٢).

وقد أُتيح لكاتب هذه السطور أن يقرأ بعضاً من هذه الرسائل قبل ست سنوات، حين عرض أمر واتفق فيه رأيه ورأي كاتبها رحمه الله. وألحّ حينئذ في العمل على نشرها... وإذاعتها على الناس.. وشاء الله أمراً آخر.. حتى كان الصيف الماضي إذ أتيح له أن يجدد رغبته تلك.. وأن يعاود الإلحاح عليها. وقد أذِنَتْ له صاحبة الرسائل بذلك.. وبأن يقدمها إلى القراء.

ولست أُريد أن أجعل من هذه الكلمات دراسة وافية لمحتوى الرسائل الثلاث، بل لست أُريد فيها أن تتجاوز معنى التقدمة.. تعرض لقليل من المسائل تنبه به على غيرها.. وتلفت القارىء

---

(٢) من كتاب «الفرد العربي ومشكلة الحكم» نشر ملحقاً بمسرحية رمزية عنوانها [قلب آخر لأجل الزعيم]. نشر دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٧٢.

إلى أهميتها.. ثم تخلي بينه وبين حديث كاتبها وأفكاره وآراءه.

☆ ... ☆ ... ☆

تعنى الرسالة الأولى من هذه الرسائل الثلاث ببعض القواعد العامة الأساسية في التربية، تربية الأطفال على وجه الخصوص. وهي تبدأ بحديث عن أصل هذه المبادىء. فهي ـ كما يقول صاحبها ـ «عقيدة انشأتها الأيام، وقوّمها كتاب الله أتلوه، وصقلتها التجارب، وأرسى التأمل أُصولها في قلبي وعقلي».

والحديث عن المبادىء يقتضي ـ ضرورة ـ الحديث عن الأحوال التي يسيطر فيها الشر، ويقلّ فيها الخير، حين تتعثر المبادىء ولا تكاد تجد لها تطبيقاً واضحاً يراه الناس... عندئذ ـ ينبه الكاتب ـ فإنه «لا أقلّ من أن يعمل المؤمنون بها في نطاق مجتمعهم الضيق... وبهذا وحده يمكن أن يوضع الأساس.. ثم تتسع الدائرة بعد ذلك

شيئاً فشيئاً إلى أن يسود سلطان المبادىء».

وفي إيجاز هذه الكلمات حصيلة غير محدودة من المعاني.. فهي تسلم إلى رفض اليأس حين يتعذر العمل العام.. فلكلٍّ ظرف ولكلٍّ حال نطاق يجب أن يجتهد فيه المؤمنون برأي.. أو أسلوب ما.. أو فكرة ما.. لنشرها، والإقناع بها، وإعداد أجيالٍ جديدة ممن يؤمنون بأصولها.

وهي تومىء إلى أن العبرة ليست بعدد المؤمنين بالفكرة أو العقيدة.. وإنما بصلاحها. وقد يقلُّ عدد المؤمنين بها والعاملين لها.. أو يكثر.. تبعاً للظروف التي يمر بها مجتمعهم. وصلاحها بعد ذلك يبقى كفيلاً بأن يزيد في عددهم إذا قلُّوا.. ويوجه سلوكهم إذا كثروا.. ويكفل لها انتشارها وانتصارها ولو بعد حين.

وهي توحي بنبذ العنف وسيلة من وسائل نشر الدعوات والمبادىء.. حين تضطهد الدعوات والمبادىء خلافاً في ذلك لكثير من أصحاب

الدعوات، ومن معتنقيها، بل وخلافاً لبعض أبناء دعوته وجماعته ذاتها.

وفي هـذه العبارة ـ إلى المعـاني المتقدمـة ـ إشـارة إلى حصـاد تجـارب النبيين صلوات الله عليهم.. وتجارب أصحابهم.. فكثير ممن عرفنا منهم ما آمن معه إلا قليل. صبروا على الأذى، وامتُحِنُوا.. فقضى منهم من قضى، وبقي من بقي ليرى انتصار دينه وذهاب عدوِّه. وإذا كانت تلك سُنَّة النبيين وأصحابهم، فهي وحـدها سُنّـة كل صاحب دعوة إلى الخيـر، وطريق كل راغب في الإِصلاح.. وكفى أُولئك قول الله تبارك وتعـالى ﴿**أُولئـكَ الـذين هــدى الله فبهــداهم اقتــده**﴾ [**الأنعام : ٩٠**].

ثُمَّ تعرض الرسـالة بعـد ذلك إلى مـوضوع (القدوة) باعتبارها الأساس الأول من أُسس التربية «فإذا أردنا أن ننشىء طفلاً نشأة سليمة وجب أن تسلم تصرفاتنا من كل شائبة لا نريدهـا له وإلا

اضطربت مقاييس القول والفعل عند الطفل حين يحاكي ما يراه.. ويقول ما يسمعه.. فيخالف قوله فعله.. فإذا هو نموذج من المنافق طيِّب القول خبيث الفعل».

ثم يأتي بيان هذه القاعدة ـ قاعدة القدوة ـ بمثل لا يختلف عليه اثنان.. محمد ﷺ.. فإنَّ الله لم يجعل منه لساناً طيباً فحسب بل جعله خُلُقاً عظيماً يمشي بين الناس: ﴿**وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم**﴾. [القلم: ٤].

وليس أصدق في تصوير ذلك من عائشة رضي الله عنها إذ سُئِلَتْ عن خُلُقِهِ ﷺ فَقالت: (**كانَ خُلُقُهُ القرآن**).. فكلماته التي يتلوها على الناس يبلغهم بها عن ربِّه عز وجل.. هي هي صور سلوكه بينهم وسيرته فيهم، فإذا أمرهم بالعدل.. كان خير من عدل، وإذا نهاهم عن الفحشاء والمنكر كان المثل الأعلى في البُعْدِ عنهما.. وإذا طالبهم بصلة الرحم، كان أوصل

الناس لرحمه.. وإذا حضَّهم على المشاورة، لم يكن أحد أكثر منه مشاورة لأصحابه. وهكذا كل خُلُقٍ طيِّب حضَّ عليه القرآن كان خير متمسِّك به رسول القرآن ﷺ، وبذلك ربَّى به صحابته.. ثم أُمماً شتَّى على مرِّ العصـــور.

وتعرض الرسالة الأولى بعد القدوة الطيِّبة إلى حسن التـوجيــه.. ووســائله «**التفــاهم والاقنــاع والمشــاركة**». وقــوام حسن التوجيــه هــو «الـرفق الخــالص من كل شــائبة من شـوائب القسوة في المعــاملة أو القول أو حتى في مجـرد الإعراض والنظرة». والاعتراض على القسـوة والإيلام ليس اعتراضاً عاطفياً فحسب.. بل هو اعتراض معلل بمصلحة الطفل أولاً، ثم بمصلحة الأمة كلها بعد ذلك «إن العصا وجارح القول لا يخلقان إنسانـاً صالحاً أبداً.. قد يخلقان (قرداً مدرّباً) تبدو على حركاته وسكناته مظاهر الأدب.. ولكننا نريد أولادنا بشراً لا قروداً.. وإني لأربأ بالبشرية التي كرَّمها الله ـ وإن أخطأت ـ عن مسخها قردةً لا تخطىء..

ولا أقول تصيب فإن مناط الصواب عقل وقلب خص بهما الإنسان دون القردة فنال بذلك عليها ـ وعلى غيرها من الكائنات ـ فضلاً. . وإن أدّياه إلى الصواب تارة وإلى الخطأ تارة أخرى».

أما مصلحة الطفل هنا فبادية لا تحتاج إلى بيان. . وتبدو مصلحة الأمة في أننا إذا خلقنا ـ بسوء تربية أطفالنا ـ أُمة من القَرود، فإننا كذلك نجعلها أُمة من العبيد! تطيع إذا لوَّح بالعصا ملوِّح، وتخاف إذا زجرها بصوته ـ كما يزجر العبد ـ زاجر. . لا تبدي رأياً خشية ما يلحقها بسببه من إيلام، ولا تدفع ظلماً خشية ما قد يقع عليها بدفعه من عدوان. . ينافق أفرادها كل حاكم. . ويتبعون كل من ملك نواحي القوة التي ترهبهم وتخيفهم.

وحين نربِّي الطفل على الإقناع والمشاركة والتفاهم، فإننا نربي أمة من الأحرار تقول وتفعل ما تعتقد أنه الحق. . وتقبل ما تقتنع به عقولها وقلوبها. . وتشارك في صنع تقدمها بقولة الحق ولو

عند سلطان جائــر. . إذ الأمة مجموع الأفراد. . فإن كان كل فرد من هـذا المجموع حـراً صنع المجموع أُمة حرة. . وإن كان الأفراد في ذواتهم قروداً أو عبيداً فمجموعهم ـ الذي يكون الأمة ـ لا يكون إلا أمـة قرود أو عبيــد!

فالإيمان بهذه النظرة في التربية متصل أوثق الصلة بالإيمان بحقِّ الإنسان ـ فرداً كان أو جماعة ـ في حرية الفكر. . والقول. . والعمـل. والتركيـز على هذا الأسلوب فيها مؤدٍ ـ في زمن قَرُبَ أَو بَعُدَ ـ إلى صنع الأمة الصالحة، إذا صحّ ـ وهـو عندي صحيح لا ريب فيه، إنّ من أهم مقوماتها أن تكون أمة تقدِّر الحرية وتمارسها وتحرص عليها في شؤونها العامة والخاصة سواء بســواء.

ثم تمضي الرسالة بعد ذلك مبيِّنة جواز اللجوء إلى الإيــلام بــاعتبــاره عقــابــاً يقصــد بــه الإصلاح. وباعتباره ضرورة تقـدَّر بقدرهــا، ولا يلجــأ إليهـا إلَّا حين تستنفد غيـرها من وسـائل

الإصلاح، ويحاط استعمالها ـ كما يحاط استعمال كل ممنوع أباحته الضرورة ـ بأقصى ما يمكن من الحذر في استعمالها والأناة في درس الظروف التي تبيحه، والتدرج فيه.

وحديث الأستاذ العشماوي عن العقوبة وجوازها، أو الإيلام ومتى يمكن اللجوء إليه، يذكرنا بمهنته التي زاولها طول حياته ـ رحمه الله ـ ويذكرنا بثقافته الإسلامية التي تميَّز فيها بالفهم الدقيق الذكي لتعاليم الإسلام ولسيرة رسوله عليه الصلاة والسلام.

أما مهنته ـ الاشْتغال بالقانون تطبيقاً وتدريساً وتشريعاً ـ فتبدو في إشارته في سطر واحد إلى النظريات الثلاث التي تتوزع حتى اليوم الباحثين في علمي العقاب والإجرام، والمشتغلين بالدراسات الجنائية.. فهو يقول: «**أنا اعترف بما للإيلام من أثر حازم في الردع والزجر.. أي ما له من صفة العقوبة بقصد الإصلاح.. ولكنني انظر إليه نظرة بغيضة ككل عقاب**».

أما الردع فهو ما للعقوبة من أثـر على غير المعـاقب يحمله على الامتنـاع عن مثـل الفعـل المعاقب عليه خشية أن يعاقب هو أيضاً على هذا الفعل. وهي نظرة يـراها بعض البـاحثين أساسـاً لإباحة العقاب في الشرائـع والقوانين المختلفـة، يدافع عنهـا من يدافـع، ويهاجمهـا من يهاجم، ويعترف الجميع أنها ـ من حيث الواقع ـ أحـــد العوامل التي تؤثر في تقدير العقوبة على أي حال.

وأما الزجر فهو ما للعقوبة من أثر على من أتى فعلاً منهياً عنه يصرفه عن الإتيان بمثله حتى لا يناله العقاب مرة أُخرى. وهي نظرة يرى المقتنعون بها أننا يجب أن ننظر في العقاب ـ تقريره وتوقيعه ـ إلى من نعاقبه أولاً.. ومـا أتاه من فعـل يعاقب عليه.. كان لذلك أثـــر في غيـــره من الناس أو لم يكن.

وأمـا الإصلاح.. فـإصلاح للفـاعـل نفســه، وإصــلاح للمجتمع كله.. إحــدى وسائله تـوقيع

العقاب أو تقريره، بما له من أثر على نفوس لا يكفي معها الاقتناع، ولا يفلح في صدِّها عما نهيت عنه بيان ما له من ضرر أو سوء أثر. والنظرة الإصلاحية في العقاب - تقريره وتوقيعه - نظرة حديثة عرفها المشتغلون بالقانون الجنائي وعلومه في وقت قريب، ولا تزال مدارسهم المختلفة تتنازع في إقرارها أو إنكارها حتى الآن.

ويبدو أثر ثقافة الأستاذ العشماوي الإسلامية، وفهمه لها - في هذا الخصوص - في أن للإسلام - أو فقهه - في كل من هذه النظرات رأياً.. بل إن هذه النظرات قد توزعت فقهاءه كذلك حين تكلموا عن العقوبة والغرض منها، والفلسفة التي تحكمها.. سواء في ذلك تلك العقوبات التي قررها الشارع في الكتاب أو السنّة، والتي يعرِّفونها **بالحدود**، أو تلك التي فوضت لأولي الأمر - أياً كان موقعهم من ولاية الأمر - والتي يعرِّفونها **بالتعازير**.

ولعل أكثر الآراء سداداً في فهم موقف الفقهاء

المسلمين من نظريات العقاب المختلفة هو ذلك الذي يرى في أنواع العقوبات وسائـل للإصلاح بنوعيه العام والخاص أو الفردي والجماعـي. وسند هذا الرأي ـ إلى أسانيد كثيرة أُخرى ـ اعتراف الفقه الإسلامي بالرفق المطلق أساساً من أُسسه الثابتة أبداً. ذلك الرفق الذي يشمل كل أمر بحثه الفقهاء المسلمون وأبدوا فيـه رأياً.. في أي بـاب مـن أبواب الفقه كان.

بل إن الرفق المطلق من خُلُقِ رسول الله ﷺ **«كان رسول الله يحب الرفق في الأمر كله»** ومن حبه ﷺ للرفق قال فيمن رجع عن اعترافه في أثناء توقيع العقاب عليه **«ليتكم رددتموه»**. وعلَّم أصحابه أن التوبة تجبُّ ما قبلها، ونهى عن القسوة حتى على الحيوان عند ذبحـه..

وكان من تراثه الذي ورثه المسلمون: **«ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمـام أَنْ يُخْطِىءَ في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»**.

ومن هذا المنطلق جاءت صعوبة الاثبات الجنائي في الشريعة والفقه الإسلامي. وجاءت القيود الكثيرة التي تحوط توقيع العقوبات، وجاءت قاعدة سقوطها بالتوبة ما لم يكن ثمة حقّ لآحاد الناس فيسقط بالرد أو الإبراء.

فإذا استصحبت ذلك كله وأنت تقرأ عبارات الأستاذ العشماوي رحمه الله عن الإيلام، والقيود التي يطلب إحاطة استعماله بها، أدركت مدى إلمامه بمادة تخصصه، ومدى فهمه لأُصول دعوته، وأحكام شريعة دينه، ومدى قدرته على تبسيط الأمور وتقريبها.. على ما كان يحيط به إذ كتب هذه الرسائل في ظروف قاسية كل القسوة، مفزعة كل الفزع، وهو مع ذلك أملك لنفسه وعقله وقلبه من كثير من الآمنين الناعمين.. وصدق الله: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾. [التغابن - ١١].

وتتحدث الرسالة - بعد الإيلام ودوره في التربية - عن الإجابة على التساؤلات التي قد يثيرها

الطفل، وعن وسائل تدريبه على احتمال واقع الحياة، حلواً كان أو مُرًّاً، بإشراكه مع مربيه في فهم حقائقها، وإدراك حوادثها على نحو مبسط. . يجعله أكثر استعداداً بقبول تقلبات الزمن وتغيُّرات الظروف.

ولست أنكر - وسيرى القارىء معي - أن هذه النظرة التي عرضها الأستاذ حسن العشماوي إلى طرق التربية ووسائلها فيها كثير من السمو، وكثير من المثالية. ولست أنكر - كذلك - ولست أجهل أن كثيراً من الناس لا يرى نفسه قادراً على التقيّد بها، والالتزام في حياته اليومية وسلوكه مع من يربي بتفاصيلها. .

ولكنني - كذلك - أزعم أن قليلاً من المثابرة، ومن أخذ النفس بالحزم، ومن التأمل الواعي في سيرة نبينا ﷺ وخلقه، ومن الفهم المتأني لدور المربي، كفيل بأن ينهي المرحلة الصعبة لكي نبدأ بعدها في الشعور بلذة تطبيق هذه الوسائل السامية

في تربية أولادنا..

وأتـرك القارىء الكـريم يستمتـع بـالـرسـالـة الأولى..

☆ ... ☆ ... ☆

الرسالة الأولى

أثر الإيلام والعقوبة في التربية

زوجتـــي الحبيبة...

سلاماً وشوقاً وحُبَّاً ودعاءً... وبعـــد،

منذ جئت هنا وأنا أرجو أن أكتب إليكِ في أمر يشغل بالي، ولا شك أنه يشغل بالكِ أنتِ أيضاً، إذ هو جدير من كلينا بهذه الشغلة... إنه أمـر أولادنا الأحباء وما يحتاجون إليه من عناية ورعاية وتوجيه، إن هذه الأمانة التي أودعها الله بين أيدينا وأوجب علينا أن نرعاها لنسلمها للمستقبل قـادرة

على أن تسعد نفسها وتسعد من حولها سعادة حقة في الدنيا والآخـــرة.

وإذا كانت الظروف قد وضعت على عاتقكِ وحدكِ عبء رعاية هذه الأمانة وحالت بيني وبين أن أشاركك ذلك، فلا أقل من أن أساهم بعض المساهمة بأن أكتب إليك عما اتخذته من المبادىء في هذا الشأن عقيدة أنشأتها الأيام، وقوَّمها كتاب الله أتلوه، وصقلتهـا التجـارب.. وأرسى التأمـل أصولها في قلبي وعقلي. وأنا واثق من أن عقيدتي هذه ستحظى منك - ومن غيرك - بما هي جديرة بـه.. على الأقل في شـأن تربيـة أولادي الذين سأُسأل عنهم أمام الله وإن كنت عنهم غائباً.

ولكن ثقتي أن المبادىء وحدها لا تنتج أثراً إن هي لم تجد من الإخلاص في تنفيذها والقيام عليها والكفاح في سبيلها ما يجعلها مؤهلة عمليـاً لأن تؤتي ثمارها... فكم من مبادىء جميلة عاشت في هذه الدنيا غريبة حائرة لا تجد لها وطناً ولا مستقراً، إلاّ بطون الكتب وألسنة الدعاة، ولكنها

عن القلوب والعقول محجوبة.. فإن بلغتها صدت عن الجوارح، فصارت وكأنها لم يكن لها وجود.

وإذا كانت المبادىء تتعثر وتتلاشى هذه الأيام إذا مست المجتمع الذي تسيطر عليه ظروف شاذة، فلا أقل من أن يعمل المؤمنون بها في نطاق مجتمعهم الضيق.. وبهذا وحده يمكن أن يوضع الأساس.. ثم تتسع الدائرة بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى أن يسود سلطان المبادىء..

☆ ... ☆ ... ☆

ولا شك أن **القدوة** هي الأساس الأول من أسس التربية، فإذا أردنا أن ننشىء طفلاً نشأة سليمة وجب أولاً أن تسلم تصرفاتنا من كل شائبة لا نريدها له.. وإلا اضطربت مقاييس القول والفعل عند الطفل حين يحاكي ما يراه ويقول ما يسمعه.. فيخالف قوله فعله.. فإذا هو نموذج من المنافق طيِّب القول خبيث الفعل.

إن الله بعث محمداً ﷺ كما قال هو عن

نفسه: «**إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق**». ولذلك حسن قوله في الناس. ولكننا لو تصورنا أن الله اكتفى منه بحسن القول لما استطاع أن يربي فرداً واحداً، فما بالكِ بأمة.. بل أمم على مرِّ العصور. لذلك أدَّبه الله فأحسن تأديبه.. فلم يجعله مجرد داعية إلى خُلُق قويم بل جعله كما قال فيه: ﴿**وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم**﴾.. ولذلك حق - وهو صاحب الخلق العظيم - أن يجعله الله للمؤمنين نعم القدوة.. ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة**﴾. [**الأحزاب**: ٢١].

ونحن نعلم يقيناً أن فينا - وفي كثير ممن حولنا - خصالاً نأمل أن لا يحاكيها الأطفال، والطفل أسرع ما يكون محاكاة لما يلحظه من أفعال وأقوال، يعجل به إلى ذلك دقة انتباه وتقدير للكبير لمجرد كونه كبيراً. ولذلك فأنا في غنى عن القول بوجوب تجنب أطفالنا رؤية الكذب والرياء والنميمة والوقيعة وبذيء الكلام والغضب السريع مِنّا أو ممن يقدرونهم من الكبار. وكل هذه الأمور اعتقد

أنه من الواجب علينا أن نتجنبها وأن نجنبها غيرنا ممن يخالطون الأطفال. ولا شك أن هؤلاء الغير حريصون على تجنبها، إن لم يكن لخيرهم ولا لخير الأطفال.. فعلى الأقل خشية أن نعلن أطفالنا بسوء هذه الخصال وإن صدرت من الكبار الذين كانوا يوقرونهم.

☆ ... ☆ ... ☆

ويأتي بعد القدوة **حسن التوجيه، في التنبيه إلى الخطأ** والتفاهم عليه وعلى وسائل تجنبه، والارشاد إلى الصواب والاقناع به والمشاركة في رسم السبيل إليه...

أقول: **«التفاهم، والاقناع، والمشاركة»**، وهي ألفاظ تحمل من المعاني ما حدَّثُتكِ عنه كثيراً.. وأرجو أن أعود إليه مرة أخرى في رسالتي على سبيل التذكير لا التفصيل.

وأنا أؤمن بأن حُسْنَ التوجيه ـ بالتنبيه إلى الخطأ والارشاد إلى الصواب، أو التأديب في لفظة

واحدة ـ يجب أن يكون قوامه الرفق الخالص من كل شائبة من شوائب القسوة في المعاملة أو القول أو حتى في مجرد الإعراض أو النظرة.. **إن هذا النبت الصغير النضير لن يحتمل القسوة في التقويم والتعليم، وإلا انثنى عوده فانكسر أو جف فمات**.. إنه أحوج ما يكون أبداً إلى الرعاية والعطف والرفق في كل عبارة أو إشارة.

إن العصا، وجارح القول، لا يخلقان إنساناً صالحاً أبداً.. **قد يخلقان «قرداً مدرباً»** تبدو **على حركاته وسكناته مظاهر الأدب.. ولكننا نريد أولادنا بشراً لا قروداً.. وإني لأربأ بالبشرية التي كرَّمها الله ـ وإن أخطأت ـ عن مسخها** قردة **لا تخطىء**... ولا أقول تصيب لأن مناط الصواب عقل وقلب خص بهما الإنسان دون القردة فنال عليها بذلك ـ وعلى غيرها من الكائنات ـ فضلاً، وإن **أدَّيا** به إلى الصواب تارة وإلى الخطأ تارة أُخرى.

إنني أعلم أن «**الكلمة الطيبة**» الوارد ذكرها في

الكتاب هي الخير، وأن الكلمة الخبيثة هي الشر. وأعتقد أيضاً أن الرفق في التأديب كلمة طيبة، لأنه خير.. وأن القسوة فيه كلمة خبيثة، لأنها شر.. والرفق يحيل النبت الصغير مع الأيام شجرة ثابتة الأصول متطاولة الفروع تؤتي جني الثمار: ﴿**ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيِّبةً كشجرةٍ طيِّبةٍ، أصلُهَا ثابتٌ وفَرْعُهَا في السماء، تُؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**﴾.. [إبراهيم: ٢٥]. أما القسوة فقد تنتج صورة الشجرة في خضرتها الكاذبة.. ولكن لا ثمار لها.. لا.. بل ولا قرار لها، لأن الخير لم يغرس جذوره في القلوب بل طلي به الظاهر طلاء سريع الزوال ﴿**ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ. اجتُثَّت من فوقِ الأرضِ، ما لها من قرار**﴾. [إبراهيم: ٢٦].

وليس معنى كلامي هذا ـ بطبيعة الحال ـ أني استبعد الإيلام نهائياً كعنصر من عناصر التأديب..

لا، فأنا اعترف بما للإيلام من أثر حازم في الردع والزجر.. أي ما له من صفة العقاب بقصد الإصلاح. ولكنني انظر إليه نظرة بغيضة ككل عقاب. وأراه ضرورة يجب أن تقدَّر بقدرها من حيث القدر والتدرج فيه والأسلوب والظروف المحيطة به.. إني أُشبه الإيلام دائماً ـ بوصفه صورة من صور القسوة ـ بالسُّمّ، يضاف أحياناً إلى الدواء ولكن بمقدار، ومن يدٍ مدربة، وبعد تشخيص سليم للداء، ومراعاة لكل ما يحيط بالمريض من اعتبارات. وبذلك وحده يمكن أن يصير السم عنصراً مفيداً من عناصر الشفاء.. وإلا غدا سُمَّاً فحسب لا نتيجة له إلا الوفاة، وغدا واضع السم قاتلاً بكل ما في هذه الكلمة من بشاعة.. وليس قتل الشخصية مع ترك الجسد حياً بأقل خطراً عندي من عودة الروح إلى ربها بموت الجسد وحده..

يجب أن تتذكري دائماً أنَّ الإيلام سُمّ قاتل، فإذا استعملتِهِ للضرورة في العلاج فليكن

استعمالك إياه كاستعمال الطبيب للسم سواء بسواء. ولا شك أن لهذا الفهم أثره في الالتجاء إلى الإيلام في التربية وذلك من حيث الصبر في تشخيص الخطأ، ومن حيث مقدار الإيلام والتدرج فيه، ثم من حيث وحدة اليد وخلوصها من كل حنق أو غضب يفسد علينا وعلى الطفل الأمر نهائياً.

فأوَّل ما يجب علينا قبل الإقدام على الإيلام أن نصبر طويلاً على تشخيص حالة الطفل وظروف خطئه الذي نريد أن نقسو عليه ليقلع عنه ذلك أنه من المعلوم أننا لن نلجأ للإيلام لعلاج خطأ عارض أو مستحدث يقع لأول مرة، وإنما قد نلجأ إليه إذا تكرر على صورة أريد معها ردعه عنه. ولكن كثيراً من الأخطاء تتكرر لأسباب لا يمكن علاجها عن طريق الإيلام، كأن يكون مرجعها سوء الفهم، أو الفكرة الخاطئة عن أمر أو تصرف أو شعور ما، أو الرهبة من موقف معين، أو الإيحاء السيء من شخص آخر ـ عن قصد أو غير قصد ـ ومحاولة

علاج الأخطاء التي ترجع إلى ذلك عن طريق الإيلام أمرٌ غير مُجْدٍ، بل هو ضارّ أبلغ الضرر لأنه يزيد الأمور تعقيداً.

فإذا أساء الطفل التصرف في أمر ما لأنه لم يفهم فهماً سليماً واضحاً التصرف الصحيح فيه، أو إذا أكثر من إتلاف الحاجيات مثلاً لأنه يظن أنه يُحْرَم حقاً من حقوقه أو يميز بينه وبين غيره في المعاملة، أو إذا كذب لأنه يرهب العقاب، أو إذا أصرّ على فعل يُعاب عليه لأنه رأى غيره يثاب عليه.. كل هذه الأخطاء وأمثالها ـ مهما تكررت ـ لن يجدي الإيلام في إزالتها.. بل إن الإيلام مع الطفل فيها سيؤدي إلى صورة من صور الكبت التي تعصف بكيانه الداخلي وتهدم شخصيته وتسلمه إلى أقبح العقد النفسية.

ومن ثم كانت الأناة في تفهم ظروف الأخطاء وبواعثها في نفس الطفل أمراً واجباً قبل التفكير في إضافة أية جرعة سامة إلى دوائه.. ولعل هذه الأناة

في البحث ستعالج - في ذاتها ودون ما حاجة إلى الالتجاء إلى الإيلام - كل الأخطاء المتكررة تقريباً، وستسلمنا إلى نتيجة واضحة هي أن الإيلام قد لا يستعمل إلا لعلاج بعض أخطاء عدم المبالاة التي ترجع إلى انعدام الاكتراث بمشاعر الغير وحقوقهم.

فإذا تبين لنا من بحثنا الهادىء أن الإيلام أصبح ضرورة لا محل لإغفالها، فعلينا أن نذكر أن الإيلام يتدرج في مراحل لا يجدر لنا الالتجاء إلى واحدة، قبل استنفاد ما دونها، فالنظرة مؤلمة، وقد تكفي.. والإعراض مؤلم، وقد يكفي.. والكلمة القاسية مؤلمة، وقد نلجأ إليها إذا لم يفلح ما دونها.. وأخيراً .. بل وأخيراً جداً.. فالضرب مؤلم وقد نضطر إليه اضطراراً..

ولكن اعلمي أن اليد التي تلجأ إلى السُّم تعالج به يجب أن تخلص من كل شائبة حنق أو غضب حتى تتجه سليمة إلى العلاج.. وإلى العلاج وحده.. وإلا لأصبح الإيلام انتقاماً أو تشفياً

أو احتقاراً. . أي **أصبح جريمة لا عقاباً**. أرأيتِ ـ مثلاً ـ إلى الطبيب يضع السم في الدواء وهو مضطرب حانق. . لا شك أن يده سترتعد فتخطىء في تقدير الكمية المطلوبة، هذا إن لم ترتعد نفسه كلها فيضع عن عمد أكثر مما يحتاجه المريض. . فيقتله.

ولما كان التأديب بالإيلام يحتاج إلى كل هذه الاحتياطات من اناة في الفهم والتشخيص إلى تدرج فيه إلى هدوء نفس في أثناء الاقدام عليه، فقد **وجب حتماً أن تتوحّد اليد التي تلجأ إلى الإيلام في التأديب**، وإلا لما ضمنّا سلامة التشخيص ولا دقة التدرج ولا هدوء النفس.

والأصل أن هذه اليد الواحدة التي لها حق الالتجاء إلى الإيلام بشروطه، هي، يدي أنا وأنتِ، متفاهمين. . لأننا ـ نحن الاثنين ـ كما تعلمين وكما ينبغي أن يعلم الجميع شخص واحد يسعى بقلبين يملؤهما الحب إلى غاية واحدة. فإذا

كانت الظروف قد حالت إلى حين بيني وبين ذلك، فقد استقلت يدكِ وحدك بالإيلام للتأديب. . .

وليس لأي يد أخرى - مهما علت مكانتها عندي وعندك - أن تؤلم الأطفال في التربية. وليس ذلك استهانة بقدرها، ولكن استجابة لوسائل التربية التي أؤمن بها على وجهها الصحيح.

أظنك توافقينني بعد هذا كله على أن الإيلام لن يكون وسيلة لحمل الطفل على الاقلاع عن خطأ ما إلا أخطاء عدم المبالاة التي ترجع إلى انعدام الاكتراث بمشاعر الغير وحقوقهم المشروعة وهم قائمون بما عليهم قبلنا. . والإيلام في هذه الصورة ما هو في الواقع إلا إقناع بما في عدم الاكتراث بالمشاعر والحقوق من قسوة وذلك عن طريق حرمانه هو من حقه في الرفق وايذاء مشاعره بالقسوة.

ومع ذلك، فإيَّاكِ وأن يكون الإيلام على مرأى من الناس أو مسمع، لأنه ما تفقده شخصية الطفل

من هذه العلانية في إيذائه تفوق بمراحل ما نكسبه من تجنيبه بعض الأخطاء.. فليكن الإيلام بينك وبين الطفل المخطىء وحده، وبعد تفاهم يعرف منه لماذا سيعاقب عقاباً مؤلماً.

وليس الرفق عندي - كما تعلمين - يعني الافراط في التدليل.. بل هو مجرد الهدوء الكامل عند الارشاد إلى الصواب والتنبيه إلى الخطأ بغية تكوين الشخصية، ذلك أنك تعلمين أن الغاية من تربية الطفل عندي - بل الغاية من الحياة كلها - هي السعادة.. أن يسعد المرء ويعمل على إسعاد غيره.. ولن يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة إلا إذا سلم من آفات الجسم والعقل والنفس جميعاً قدر المستطاع.

وبراءة **الجسم** من الآفات تحتاج - بعد علاج الأمراض البدنية - غذاءً ورياضة ونظافة واقامة صحية وسروراً بقدر الامكان.

وبراءة **العقل** من الآفات تأتي بالتعليم،

وباقتلاع الأوهام الخاطئة في شؤون الدين والدنيا.

وبراءة **النفس** تكون عن طريق الثقة بها. والاطمئنان إلى النجاح وعدم اليأس من الفشل، والتخلص من عوامل الكبت والخوف وشدة الخجل. والعثور على هواية سليمة للتسامي بالمشاعر والمطالب والغرائز.

وليس معنى هذا التقسيم أن هناك فاصلاً واضحاً بين آفات **الجسم والعقل والنفس**.. فكلها في الواقع مترابطة أوثق ارتباط، متداخل بعضها في البعض الآخر، تؤثِّر كل منها في الأخرى أبلغ الأثر. ولذلك وجب أن تسير كلها جميعاً جنباً إلى جنب وتنال منا ذات الرعاية.

والذي يعنيني الآن في كل هذا هو الأسلوب إلى بلوغ الطفل هذه الغايات.. أي أسلوب التربية الذي يمكن أن يؤدي بنا إلى إيجاد شخصية مستقلة للطفل تنبع عنها ذاتها الرغبة في السعادة

والاسعاد، وتكمن فيها بواعث العمل للوصول إليهما.

ولا سبيل - عندي - إلى تكوين هذه الشخصية إلا بأن يكون التوجيه قائماً على أساس من التفاهم والإقناع والمشاركة.

فالتفاهم على الصواب والخطأ - أين هما - ينير للطفل السبيل فيسير على بينة وعلم بالوسيلة والغاية: **﴿قل: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون..، إنما يتذكر أُولو الألباب﴾** [الزمر: ٩].. ثم هو يعطي الطفل فرصة كاملة للصراحة في التساؤل وفي إظهار رأيه في الأمور وفي الجهر بأخطائه ومبرراتها، وهذا يمكننا من علاجها في وضوح.

والإقناع يرسخ فيه عوامل الخير في نفسه، فيصدر إليها عن رغبة ذاتية لا عن مجرد إطاعة أمر دون أن يفهم له سبباً. فيسعى إلى التخلص منه ما أن يجد لذلك الفرصة السانحة.. يجب أن نحذر

إصدار الأوامر.. ويجب أن نقصرها على أضيق الحدود.. فكلما كثرت الأوامر كثرت الرغبة في مخالفتها. إن كل خير يأتيه الطفل، أو شر يتجنبه، طاعة لأمر دون اقناع، سرعان ما يعمل على التخلص منه في الخفاء.. وكل خفاء ظلام.. وكل ظلام يفسح أمامه طريق الضلال..

والمشاركة منا للطفل في أعماله، ومشاركته هو لنا في أعمالنا، تعطيه القدوة الحسنة للعمل، وتدربه عليه حتى إذا ما استقل كان لديه من محصول التجارب ما يسمح له بالسير السليم الموفق.

ويجب علينا في جميع هذه الصور ـ من تفاهم وإقناع ومشاركة ـ أن نحترم شخصية الطفل، وأن نشعر نحن ـ ونشعره معنا ـ أنه يخطو كل يوم خطوة جديدة في الحياة.. فإن أخطأ الفهم أو الرأي أو الفعل فليس لنا أن نسخر منه، وإن أصاب فعلينا أن نشعره بتقديرنا لصوابه دون إسراف.

إن الطفل بطبيعته كثير السؤال لتفتح ذهنه الصغير للحياة الواسعة ورغبته في استيعاب أكبر قسط ممكن من المعرفة عن كل ما يرى ويسمع.. ولا يجوز لنا أن ننهره عن ذلك أو نأمره بالكف عن السؤال، فنحن إن فعلنا فإننا نغلق النافذة التي يرى منها ويتنفس.. ويجب أن لا نشغل عن أسئلته ـ مهما تفهت في نظرنا ـ بالعظيم من أحاديث الكبار. **فالطفل كالنبات الصغير أحوج إلى غذاء المعرفة من الدوح الباسقة**. يجب علينا أن نجيب الطفل على كل سؤال، بإيضاح وتفصيل أحياناً، وبإيجاز أحياناً أُخرى وبهدوء في جميع الأحوال. على أن يكون الرد على نحو يمكن للطفل أن يفهمه ويستسيغه مراعين في ذلك سِنّه ومداركه. حتى الأسئلة التي يراها الناس محرجة أو مخجلة لا محل للتحرج منها أو الخجل، بل يمكن أن نوضحها له على نحو مبسط دون اضطراب يثير في نفس الصغير القلق.. وأرجو أن أعود إلى هذه الجزئية في معرض حديث آخر.

فإذا أعيانا الجواب ـ ويندر أن يحدث ذلك ـ

فلنلفت نظر الطفل وذهنه فجأة إلى موضوع آخر يثير انتباهه، وبذلك نصرف رغبته إلى المعرفة إلى موضوع أيسر علينا وأوقع له إلى أن نستعد في فرصة أخرى للإجابة على سؤاله الأول. ولكن يجب علينا الحذر في استعمال هذه الطريق مع من كبر من الأطفال بعض الشيء، فأفضل عندنا أن نقول لهم، لا نعلم.. وسنبحث ونجيب عليكم، من أن نكذب أو نعوده لفت نظره ـ وقد كبر ـ إلى غير موضوع اهتمامه مما قد يؤدي به إلى عدم الاكتراث بالمثابرة على معرفة ما يريد.

إن كل طفل ـ بطبيعته ـ يحبُّ أن يعامَل معاملة الكبار في كثير من الأمور، لأن ذات الكبر عنده غاية. ولا مانع من ذلك، فمثل هذه المعاملة تعجل به نحو النمو النفسي ما دام ذلك لا يخالف القواعد الصحيحة التي يجب أن يسير عليها. **ولكن ليس معنى معاملة الطفل كالكبار حرمانه من حقه في اللهو والعبث والمرح والصخب.. لا...** فإن هذه الأمور عندي هي قوام السرور الحقيقي

للطفل، والسرور ـ كما قلت ـ أساس هام من أُسس سلامة الجسم من الآفات.. وحبذا لو شاركناه ـ في حدود بسيطة ـ بعض لهوه.

وهناك أمر لا أُريد أن يفوتني وأنا أحدِّثك عن توجيه الطفل عن طريق التفاهم والاقناع والمشاركة، وأعني به إشراكه معنا في فهم الحياة على حقيقتها ـ على نحو مبسط ـ بما فيها من متاعب وحرمان وآلام وخشونة وفشل نأمل من ورائه النجاح.. فالحياة ليست نعيماً بحتاً.. إن عربون ابتسامتها وسعادتها والتوفيق فيها دموع وعرق وسلسلة عثرات..

وليس سبيل إفهام الطفل هذا المعنى أن نصبّه في ذهنه صبّاً، بل هي لمحات بسيطة، وملاحظات عابرة، وقصص تحمل هذا المعنى، وحوادث نقصد أن تجري مع الطفل فنعلق عليها في بساطة بمفهوم هذه النظرة إلى الحياة.. وبذلك يعتاد الطفل هذا الفهم. ما المانع من حرمان الطفل أحياناً من بعض رغباته على أن يعلل له الحرمان

بقلة المال مثلاً.. لست أرى مانعاً من ذلك، فالمال يكثر في يد الإنسان ويقل تبعاً للظروف.

إن تعرض الأطفال لبعض صور الحرمان القليلة ـ بشرط إفهامهم سببها ـ ولبعض صور الخشونة في الحياة على انها رياضة تارة وضرورة تارة أخرى، أمر يجعلهم ينظرون إلى الحياة في المستقبل نظرة أكثر واقعية، فالغيب لا يعلمه إلا الله، فعلينا أن نلقاه على استعداد لكل حالة يمكن أن يكون عليها.. اعتقد أن هذا هو الصواب، وإلا لما قال سلفنا لأبنائهم والدنيا مقبلة عليهم «**اخشوشنوا، فإن النعمة لا تدوم**».

ولحديثنا بقية، أرجو أن تسمح الظروف لنا بها.

مع قبلاتي وأشواقي،

زوجك : حسن

☆ ... ☆ ... ☆

الرسالة الثانية

تحصيل العلم

يسعدني أن أقدم إلى القراء الكرام الرسالة الثانية من رسائل المرحوم الأستاذ حسن العشماوي لزوجته [هكذا نربي أولادنا].

وموضوع هذه الرسالة هو «تحصيل العلم». ولست أشك في أن القارىء سوف يجد في تنوع مواضيع البحث فيها وسلاسة الانتقال بين الأفكار في فقراتها لذة ممتعة، لا تعدلها إلا لذة التأمل فيما أورده كاتب الرسالة من آراء وما ناقشه من نظرات.

وقد رأيت أن أعلِّق على بعض فقرات الرسالة في حواشيها لأوضح رأياً، أو أُشير إلى مصدر للتوسيع فيما أشارت إليه عبارات الرسالة من معنى. مستغنياً بما جاء في الرسالة نفسها عن إطالة التعليق عليها.

وأملي أن يجد القارىء في هذه الرسالة، وفي الرسالة التالية عن التربية الدينية مثل ما وجد في الرسالة الأولى متعة وفائدة.

دكتور محمد سليم العوا



زوجتـــي الحبيبـــة. . .

حـدَّثتك في رســالتي الأولى ـ بشـأن تـربيـة أولادنا ـ عن القدوة الحسنة، والرفق في المعاملة، وصور الإيلام وظروفه،وأسس تكوين الشخصية عن طريق التوجيه بالتفاهم والاقناع والمشاركة. . ولم أجـد داعيـاً لـلإكثـار من الأمثلة في المــوضـوع الأخيــر ـ لا لأنـه أوضح من أن نـزيده ايضـاحاً بالأمثلة فحسب ـ بل لأن لنا عودة إليه في بعض صوره الخاصة من ناحية أخرى.

وسأفرد رسالتي الثانية هذه لموضوع «**تحصيـل العلم**» وأرجو أن تكون «**التربية الدينية**» مـوضوع الرسالة التالية بإذن الله.

وقد قدَّمت «العلم» ـ وهو «غذاء العقل» ـ على

الدين «وهو جلاء الروح»، لا لأن العقل أسمى من الروح قدراً، **ولكن لأن التطور الطبيعي للطفل أن يعلم قبل أن يؤمن**، وإلا كان إيمانه تقليداً لا غناء فيه. بل إن الإنسان البدائي عرف كيف يأكل، قبل أن يؤمن بأن القدرة نعمة من نعم الله.

والعلم غذاء العقل، وقوام الشخصية المكافحة الناضجة في العصر الحديث. لا، بل وفي كل العصور، كل ما في الأمر أن نطاق العلم اتسع، وشمل آفاقاً كانت أبعد ما تكون عن متناول عقول أسلافنا، بل شمل أموراً كانوا يدخلونها في نطاق «الغيبيات» من دين وسحر. فالدِّين كان عندهم معالجة شؤون الله والأرواح الخيرة، والسحر كان ممارسة أمور الشيطان والأرواح الخبيثة. أما اليوم، فقد قرَّب إلينا العلم أمور الشمس والنجوم والرياح والأمطار والزروع، كما فسَّر لنا ظواهر الشهب والزلازل والبراكين والأعاصير والأمراض، وأتبع كشوفه هذه باختراعات ما كان يخطر ببال أسلافنا أن تكون. ولا شك أن العلم في تقدم

واتساع نطاق، فلا نـدري ـ في عصر أولادنا ـ مـدى ما سيصـل إليه.. قـد يبلغون الكـواكب، ويصافحون الملائكة، ويلقون الشياطين.. حتى لا يبقى «غيب» في الوجود غير الله وحده، وقـدرته على الخلق والبعث[1].

ومن هنا كانت الخصومة التقليدية على «مناطق النفوذ» بين العلم والدين، أو ـ على الأصح ـ بين رجال العلم ورجال الدين.. تلك الخصومة التي رأى العالم من جرائها عقولاً تقبر، وأفكاراً تُوأد، وآلات تخـرب، وعلمـاء يحـرقـون أو يقتلون أو يسجنـون باسم حمـايـة الـدين من إلحـاد العلم وكفـره.. ثم دار الزمن دورتـه، لنـرى كنـائـس تهدم، ومساجد تهجر، وأخلاقاً وقيماً تهدر لحماية العلم من خرافة الدين أو تخديـره.

---

(١) من الواضح أن هذه العبارة لا ينبغي أن تفهم على ظاهرها. فالمقصود بها بيان أن العلم البشري قد يكتشف ما لا يخطر ببالنا اليوم اكتشافه. وسوف يأتي هذا المعنى في عبارة أكثر وضوحاً بعد قليـل.

ومع ذلك، بقي العلم يتسع نطاقه لم ينحسر أمـام اضطهـاد، وظلّ الإيمـان راسخاً في قلوب البشر، حتى في قلوب الملاحدة ومتخذي العقل أو ـ الإرادة البشرية آلهة ـ بقي الإيمان في قلوبهم مستتراً وراء انخداعهم الموقوت بالنصر، ثم يسفر في المواقف الحاسمة من حياتهم.

ويبدو لي أن بقاء الإيمان في القلوب ـ كل القلوب ـ أثر من آثار الفطرة، تلك الفطرة التي عبَّر عنهـا الله في القرآن بشهـادة ذرية بني آدم ـ في الغيب ـ على أُلوهيـة الله وحده: ﴿**وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذرِّيتهـم، وأشهدهم على أنفسهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى، شهدنا.. أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين**﴾. [**الآية ١٧٢ من سورة الأعراف**].

ومن فهمي لهذا المعنى احسب «جان جاك روسو» صادقاً في ظنه أن الخير المطلق نقش في قلوب البشر دون حاجة إلى تلقينهم إياه، فلو أنهم

استفتوا قلوبهم لأصابوا، وإنما تفسدهم ظروف حياتهم في المجتمع الذي يعيشون فيه. ومن هنا اتخذ «روسو» الفطرة السليمة وحب الطبيعة والتجربة الشخصية أساساً لدستوره في التربية في القرن الماضي. ولكن روسو - وإن كان جديراً بالدراسة والتقدير - قد غالى في خياله شأن كل رائد نظرية حديثة إلى حدٍّ لا أستطيع أن أتابعه فيه.

وعلى أساس الثقة في الفطرة وسلامتها، أرى أن لا خشية على الإيمان من العلم واتساع نطاقه والشغف بنظرياته وتتبعها والمشاركة فيها لمن هو على ذلك قادر، ما دام الإيمان مستقراً في قلبه. ذلك أن الإسلام - الذي به ندين - لم يحجب عن قدرة الإنسان غير أمرين: ذات الله، وقدرته على الخلق والبعث. أما ما عدا ذلك فقد أباحه للعقل البشري يجري وراءه مستكشفاً ومفسراً ومسخراً ليدور وينتفع ما شاءت له قوته أن يدور وينتفع ، ثم ليظل بعد ذلك - وقبل ذلك - في

نطاق وجود الله وحدود قدرته ـ وحده ـ على الخلق والبعث.

وتحضرني بهذه المناسبة قصة رمزية صينية ـ قرأتها لتوفيق الحكيم على ما أذكر ـ تقول إن قرداً جلس يوماً في كف بوذا يحاججه «القرد يرمز إلى العقل البشري وترمز كف إله الصين إلى قدرة الخالق» وأكَّد القرد أنه يستطيع أن يقفز إلى آفاق بعيدة لا تخطر لبوذا على بال.. وأباح له الإله ذلك.. فقفز القرد، وظل يعلو ويعلو.. حتى وصل ـ في السماوات العلى ـ إلى هيكل عظيم قامت حوله خمسة أعمدة ضخام. فآمن القرد بقدرته.. ووضع علامة أسفل إحدى هذه الأعمدة ليبرهن بها لبوذا ـ عندما يهبط إليه ـ أنه وصل إلى هذه الآفاق، وقفز القرد عائداً، فلما صار في كف بوذا أبلغه بما كان.. فطلب إليه أن ينظر أسفل أحد أصابع يده ـ أصابع يد بوذا ـ فوجد القرد علامته.. ولم تكن الآفاق التي وصل إليها القرد إلا في حدود كف بوذا.. فليقفز العقل البشري ما شاء، فإنه ـ دائماً ـ في حدود قدرة الله.

لقد استطاع الإنسان ـ ويستطيع ـ أن يصنع مما في الوجود من مواد، آلة جبارة تغوص إلى أعماق الأرض أو تنهب سطحها، أو تخوض البحار أو تحلِّق في السماء، أو تنتج الرائع من الحاجيات.. **ولكنه لا يستطيع أن يخلق ـ من العدم ـ ذبابة أو ما دونها.**

لقد استطاع الإنسان ـ ويستطيع ـ أن يكشف قوانين الجاذبية والنسبية، ونظام دورة الأفلاك، وقابلية الذرة للتحطيم، وفعل الكهرباء في تكثيف بخار السحب.. فسخَّر كشوفه هذه لخيره أو شره.. ولكنه لن يستطيع أن يخلق قانوناً..، إنه يكشف عن القانون المخلوق فيسخره أو يقلده، ولكنه لا يبدع جديداً من النواميس في الوجود: ﴿**فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب.. فَبُهِتَ الذي كفر..**﴾[البقرة : ٢٥٨]. لأنه لا يملك أن يحدث قانوناً للفلك يغاير ما هو قائم.

وقد استطاع الإنسان ـ ويستطيع ـ أن يداوي

كل مرض عضال، وأن يعوض الناس عن كل عضو فسد أو فقدوه .. كل ذلك لأنه يكشف عن الشيء، ثم يكشف عن علاجه أو بديله في حدود ما أوجد الله وحده، **ولكنه وقف أمام الموت صامتاً، لأنها الحلقة الأولى من حلقات إعادة الخلق.**

واستطاع الإنسان ـ ويستطيع ـ أن يؤلف حيواناً أو نباتاً جديداً من تلاقح حيوانين أو نباتين.. بل قد يستطيع ـ كما يأمل ـ أن يحضر في المعامل أطفالاً من تزاوج مني وبويضة في قارورة، وقد يكون الإنسان «المحضر» أقوى منا أو أضعف أو مغايراً لنا على نحو ما.. **ولكن الإنسان ـ في كل حال ـ لن يوجد من العدم منياً ولا بويضة..** وسيبقى دائماً فاغر الفم مشدوهاً أمام سرٍّ رهيب واحد هو: قدرة الخلق من العدم. **وإذا سلمنا بقدرة الخلق من العدم فنحن نسلِّم ـ حتماً ـ بالقدرة على البعث الذي هو إعادة الخلق بعد الفناء.**

ولنصغ بعد ذلك ـ مصدِّقين ـ إلى هذا السؤال الخالد: **﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثُمَّ يعيده ؟. . قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده. . فأنَّى تؤفكون؟﴾ [الآية ٣٤ من سورة يونس].**

ولذلك كله أرى أن الخصومة التقليدية بين الدين والعلم لم يكن مرجعها إلى تنافر بين الإيمان وطلب العلم، **وإنما كانت نزاعاً على مناطق النفوذ بين رجال الدين ورجال العلم،** غذاها وساعد على نمائها ما جُبِلَ عليه الناس في الغالب من إيثَارهم بقاء حالهم على المألوف تقليداً لمن سبق: **﴿إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ. . وإنَّا على آثارهم مقتدون. .﴾ [الزخرف: ٢٣]** ويظل الناس هكذا يرددون حتى يأتي واحد من أُولئك الذين يعدُّهم معاصروهم مجانين ـ من الرسل أو المصلحين أو العلماء ـ ليحطِّم القاعدة ويخطو بالبشرية خطوة أُخرى إلى الأمام.

ومن هنا ترين أني لا أوجس من العلم خيفة،

ولا من تعلق أولادنا وعصرهم به، بل أوثر اندفاعهم إليه، اندفاع المؤمن بشيء ثابت، الراغب في كشف كل شيء آخر.

بل إني أزيدك قولاً بأني أعتقد أن الإسلام ـ الذي به ندين ـ دعا عقول البشر إلى التفكير والبحث ليصل إلى كشف مغاليق الوجود، واعتبر هذا سبيلاً إلى الإيمان بالله، بل إلى ما يرقى عن مجرد الإيمان أعني إلى خشية الله. ولأضرب لكِ على ذلك مثلين ـ من أمثلة عديدة ـ في كتاب الله:

١ ــ ففي سورة البقرة، يرد سؤال الناس الرسول عن الأهِلَّة، ما هي؟ وكيف تشرق وتغرب؟ ولم تزيد وتنقص..؟ فيأتي الوحي يردهم عن السؤال، ولا يجيبهم إلا بمظاهر المنفعة، وهو تحديد الوقت. أما جواب السؤال فسبيل معرفته الكشف، سبيل معرفته عقل البشر لا وحي السماء، فمن أراد أن يكشف أسرار الكون باستنباء الوحي ـ لا العلم ـ فمثله كمن يدخل البيوت من غير

أبوابها. . والبر والسلامة، والتقوى، كل ذلك في دخول البيوت من أبوابها لا من ظهورها، في سلوك السبيل الصحيح للكشف عن الكون وأسراره، وبهذا السبيل قد يفلح الإنسان في بلوغ غايته: ﴿**يسألونك عن الأهِلَّة. قل: هي مواقيت للناس والحج. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى، وأْتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ **[الآية ١٨٩ من سورة البقرة]**.(١).

٢ ــ وفي سورة فاطر، نرى الآيات ـ بعد أن نبَّهت إلى اختلاف الألوان والأصناف في الزروع مع وحدة الماء، وفي الناس والحيوان والجماد ودعت إلى رؤية ذلك كله ـ كرَّمت العلماء بأن وصفتهم بأنهم هم الذين يخشون الله. . ولما كان العقل مركب العلم والكشف، وكان العقل من

---

(١) زاد الأستاذ حسن العشماوي فهمه في هذه الآية بياناً في موضعها من كتابه «مع القرآن» المجلد الأول ص ١٠٧ .

طبيعته الغرور والشك واحتمال الخطأ، تختم الآية بوصف الله بالعزَّة ـ فلن يناله غرور العقل وشكه ـ وبالمغفرة، فهو يغفر سلفاً أخطاء المخطئين ما حاولوا ـ مخلصين ـ بلوغ الغاية: ﴿ألم تَرَ أَنَّ الله أنزل من السماء ماءً، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها. ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُهَا وغرابيبُ سود.. ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانُهُ كذلك. إنما يخشى الله من عبادِهِ العلماءُ، إنَّ الله عزيزٌ غفورٌ﴾. [الآية ٢٧ ـ ٢٨ من سورة فاطر].

وإن اليقظ في تصفحه لكتاب الله ليجد الكثير من هذه الأمثلة. ولكن من الأهمية بمكان عظيم أن لا نتورط في فهم ظاهر بعض الآيات ـ التي لم يقصد منها غير مخاطبة الوجدان بالواقع المحسوس ـ فهماً يجمد عند صورة معينة في تفسير الأشياء، فيفجأنا العلم ـ الذي لا يعرف الجمود ـ بتفسير آخر يثيرنا عليه أو يهز إيماننا بالدين.. ومن هنا كانت صدمة «المؤمنين» بسبب نظريات دارون

مثلاً عن أصل الأنواع، لأنهم فهموا من ظاهر آيات التوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من كتب الأديان ، أنَّ الله قد خلق - في لمحة - كل شيء في الوجود وكل حي من نبات وحيوان وإنسان وجن وملائكة على الوضع الذي نراه اليوم - أو نتصوره - وأنها ستظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها في لمحة أُخرى، أو نفخة. . ثم حين ثبت لدارون - وأكَّده من تبعه - أن الأشياء والكائنات تطورت كلها أو بعضها على مرِّ العصور البعيدة، فاندثرت أنواع وقامت على أنقاضها أنواع جديدة أكثر مقدرة على الحياة، وأن الطبيعة لا تزال سائرة في تطويرها وتنقيحها للكائنات على نحو بطيء لا يتفق بحال مع سابق فهمنا لمعنى اللمحة - أو الأيام الستة - التي خلق الله فيها الوجود[1].

---

(١) تعرضت النظريات التي قال بها دارون ومن تبعه إلى كثير من الجدل بعد الوقت الذي كتبت فيه هذه الرسالة. ويجد القارىء - إذا شاء - تلخيصاً للآراء فيها والانتقادات عليها في مؤلف الأستاذ محمد قطب «التطور والثبات. في تاريخ البشرية» وهو مطبوع عدة مرات في مصر وبيروت . نشر دار الشروق القاهرة.

أظنني أطلت عليكِ في هذه التقدمة عن صلة العلم بالدين، فأرجو أن يكون عذري عندك في ذلك حرصي على أن أنقل إليكِ حقيقة مشاعري نحو العلم من ناحية، وعنايتي من ناحية أخرى بأن أدفع عنك ومن ثم عن الأولاد هذا الشبح القائم اليوم في أذهان المتدينين نتيجة اضطهاد أصحاب النظريات العلمية الحديثة لهم، فإن الأمر لا يعدو عندي أن يكون العلم ـ وقد انتصر أهله ـ راح يرد على الدين وأهله ما كان قد لقي منهم قديماً من تنكيل وتعويق. ولكن هذه الهزة إلى حين، يستقر بعدها الأمر، ويعلم الإنسان أن **الدين والعلم ركيزتاه الرئيسيتان اللتان لا يستطيع سيراً بدونهما معاً، وإلا انحرف فصار علمه شرّاً عليه وشقاء، أو كان تدينه نوماً وأوهاماً.**

والعلم الذي أقصد أن نعمل على أن يحصله أولادنا هنا هو العلم بمعناه الواسع.. هو كل معرفة تأتي عن طريق الفكر وإن مسَّت الروح أو الحواس، ومن ثم اعتبر الأدب وبعض الفنون علماً

في هذا المعنى.

ولا شك أن العلوم الرئيسية التي يحتاج إليها كل إنسان مثقف هي اللغة، والتاريخ، والجغرافيا، والنبات والحيوان بوصفهما أبناء الطبيعة البررة، ثم إلمام بالطبيعة والكيمياء، والرياضيات، والأديان، والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ثم الأدب والفنون.. **وحين يكبر الأولاد مرحلة أخرى سيحتاجون إلى تحصيل علم النفس وعلم الجنس وما يتبع ذلك من توسع بعض الشيء في دراسة الطب والدين والاجتماع**. ولكنني لن أعرض لهذين العلمين - علم النفس وعلم الجنس - في رسالتي هذه مرجئاً الحديث عنهما إلى موضع أكثر مناسبة لهما في رسالة أخرى.

ولنعرض لكل علم من هذه العلوم الرئيسية التي ذكرت، لنحدِّد - في غير إطالة - نطاقها والهدف من تحصيلها.

☆ ... ☆ ... ☆

اللغـــات:

١ ـ فإتقان لغة أو أكثر هي السبيل الوحيد في عصر الكتابة والطباعة لتحصيل علم الغير في الماضي والحاضر، وللتعبير عما لدى الإنسان من علم أو رأي أو مشاعر. ولا سبيل إلى إتقان اللغة إلا بكثرة القراءة التي تطبع في ذهن الإنسان ـ وخاصة الطفل بفضل ما أُوتي من حافظة ـ الكثير من الألفاظ والتركيبات . ولما كانت القراءة ـ مجردة ـ ثقيلة على نفس الطفل ، فقد وجب أن نجعل فيها ما يشوقه إليها، ومن هنا كانت قصص الأطفال ومجلاتهم بما فيها من خيال وواقع ممتع مشوق يحملان الطفل على مواصلة القراءة ومن ثم يوصلانه إلى الاستيعاب والاتقان. وأنا أعلم أن «لكامل كيلاني» ـ مثلاً ـ مجموعة كبيرة مفيدة من كتب الأطفال فيها من التشويق بقدر ما فيها من الفائدة وسلاسة الأسلوب، أما في اللغات الأجنبية ـ أو اللغة التي سيختارها كل من الأولاد ـ فأصحابها قد سبقونا بمراحل في وضع قصص مشوقة للأطفال

تحفزهم إلى القراءة.

ولست بحاجة إلى القول بأن كل حريص على إتقان اللغة العربية سيحتاج - بعد فترة الإعداد الأولى - إلى دراسة القرآن بوصفه أبلغ ما في العربية، والحافظ لأسلوبها وروعتها.

التاريخ:

٢ ـ والتاريخ عبر الماضي وإرهاصات المستقبل، وسجلّ تطور البشرية البطيء إلى حياة أفضل. فالرسالات والحضارات والاصلاحات والمكتشفات، والحروب والثورات وخطوات التقدم والانتكاس، ومواقف النبل والنذالة.. كل ذلك يستطيع الفتى أن يراه على صفحة التاريخ.

ويجب أن ننظر إلى التاريخ من ناحيتين مختلفتين، نرى - في الأولى - التاريخ كلاً نتتبع فيه تطوّر البشرية، لنحس ونؤمن بأن هذا المخلوق المكرَّم - أعني الإنسان - في تقدم مضطرد برغم ما

في حياته من عثـرات وانتكاسـات . ونقف ـ في الناحية الثانية ـ عند المواقف الصارخة والأحداث الجسيمة والأفراد الأفـذاذ، لندرسهـا على مهل، نتأمل ما أحدثت من انتفاضات ونعـرف مواضـع الخير والشر فيهـا . . **فهذه المـواقف والأحداث والأفراد هي في الواقع معالم الطريق في تاريخ البشرية الطويل**، هي مواضع الخطو الحاسم في حياتها إلى الأمـام أو إلى الخلف. وعلى هذا، يمكن أن نتصور التاريخ ـ من الناحية الأولى ـ حيـاة كاملة، أو فيلماً سينمائياً متكاملاً، يتحرك فيصور لنا قصة الإنسانية كلها . وهو ـ من الناحية الثانية ـ «ألبوم صور الذكريات» يرينا موقفاً معيناً لا يعنى عنايـة مباشرة بما سبقه ومـا تلاه، ولكنـه يذكـرنا بهمـا ويوضح لنا أثره فيهما .

ولكن على الفتى ـ حين يدرس التاريخ ـ أن يعلم سلفاً أن ليس كل ما فيه يقيناً لا يقبل الشك، فكـاتب التاريـخ إنسان لـه فكرتـه ودينه ووطنيتـه وعصره، ومن ثم فهو يقع تحت تأثيرها مجتمعة

حين يكتب.. هـذا إن لم يكن قد وقـع تحت ظـروف أسوأ، فـدعاه النفـاق أو حب النجـاة أو التعصب الأعمى إلى قلب الحقائق التي رآهـا.

الجغرافيـا:

٣ ـ ويجدر بالطفـل أن يُلِمَّ ـ منذ البداية ـ بقسط من الجغرافيا الفلكيـة، ليفهم الفلك ودورته، الـدورة الشمسية على الأقـل، والطبيعيـة ليتصور شكل الأرض وطبيعتها ويعرف القارات والمحيطات والتضاريس والرياح، ويفهم تفسير السحب والأمطار والبـرق والرعـد والـزلازل والبـراكين. ثم تـأتي **الجغرافية السياسية** تعلِّم بالبلدان، **والاقتصاديـة** ليتعـرف على صور الثـروة وطـرق استغـلالهـا، **والبشرية** ليحيط بشيء عن مختلف الأجناس.. ثم تتدرج له المعرفة أكثر وأكثـر.

وأعتقد أنه يجب أن لا يخلو بيت ـ فيه طفل ـ من نموذج للكرة الأرضية، أو من أطلس ملون،

ومن كراسة خاصة لكل طفل يرسم فيها ـ بمعاونة مدرِّسه أول الأمـــر ـ ما يشاء من خرائط ونماذج.

علم الأحيـــاء :

٤ ــ إن معرفة الطفـــل بالكثيـــر عن النبات والحيوان ـ ألصق الكائنات الحية بـالطبيعـة ـ أمر واجب ويسير، وهو يعد مفتاح معرفته بالكثير من العلوم الأخـــرى وأســـرار الكـــائن الســـاعي إلى الاستقرار والسيطرة، أعني الإنسان.

فعلى الطفل أن يلاحظ تطور البذرة إلى شجرة تؤتي الكثير من البذور، وتطور البيضة على مراحل إلى دجـاجـة تبيض، أو تطور الجرو إلى أم ترضع جراءها. ثم يلم بأعضاء النبات والحيوان وأسمائها ووظائفها، **وبحاجة هذه الكائنات إلى ماء وغذاء وضوء وهواء**، وبالظروف التي تنفعها أو تلحق بها الضرر، ثم بأسلوب تكاثرها. ولما كـان الحيوان أعلى درجة في الحيوية من النبات، فإنه سيدرس

فيه حواسه وغرائزه وصفاته النافعة والضارة على السواء.

وعلينا ـ على كل حال ـ واجب الحرص على أن يشعر الطفل بأن الإنسان هو صاحب الحق في السيطرة على هذه الكائنات الأخرى، ومن ثم يفهم منافعها ـ حية أو ميتة ـ ويسيغ هذا الانتفاع حتى لا يربطه بهذه الكائنات نوع من الصلة العاطفية الساذجة التي ـ إذا كبرت معه ـ انحرفت به إلى صورة من صور الشذوذ، كالنباتية مثلاً التي قد ترجع إلى الإسراف في الرفق بالحيوان والشعور بحيويته.

الطبيعة والكيمياء:

٥ ــ أما الطبيعة والكيمياء، فلا أقل من أن يلم بأصولهما العامة التي ترتكز عليها بعد ذلك كل النظريات، فلنعرِّف الطفل بالكثافة وليفهم الجاذبية وصورها وآثارها، والحرارة وسببها وأثرها في المواد وأسلوب قياسها، والصوت وماهيته وانتقاله ووسائل

حفظه لإعادة ترديده، والضوء ومبعثه ومسراه انكساره. وليتعرف على بعض المواد وخصائصها ومعنى تحللها أو تفاعلها، وإمكان تحول الشيء الواحد ـ كالماء مثلاً ـ من سائليته إلى غاز بتبخيره إلى صلب بتجميده دون فقدانه لخصائصه.. وبهذه المعلومات وأشباهها ـ مما يوقف الطفل على عتبة علمي الطبيعة والكيمياء ـ يستطيع أن يفهم ـ إلى حدٍّ كافٍ ـ ما حوله من مظاهر، أربأ به ـ في عصرنا هذا ـ أن يقف أمامها فاغر الفم حائراً أو أن يركن إلى تفسير سقيم من الخرافة أو الوهم.

الرياضيات:

٦ ـ أما الرياضيات ـ من حساب وهندسة وتوابعهما ـ فيكفي أن نعلم أنه بدونها ستظل الأرقام والأوزان والمكيلات والأبعاد والانحناءات ـ وهي أبسط ما نحتاجه في حياتنا اليومية ـ لغزاً مغلقاً يعجز عن فهمه، فما بالك بما هو فوق ذلك من العمليات الحسابية التي أصبح العصر يقوم عليها

فلا تستغني أوضاعنا الراهنة عنها بحـــال.

علـم الديـــن:

٧ ـ أما علم الدين، فهو ـ كما تعلمين ـ **عقيـدة وأسلوب وعلم**. أما العقيـدة والأسلوب فسأتركهما إلى رسالة خاصة عن التربية الدينيـة. وأنا في حديثي الآن أقصر النظر إلى الدين كعلم يجدر بالفتى أن يلم بجانب منه.

فيجب أن يعلم الطفل ـ منذ البداية ـ أنَّ الله واحد ولكن الرسل كثرة، وأنهـم كانوا بشراً مثلنا يُوحى إليهم، وأن الرسالات على الأرض تعددت، وأن ليس معنى مخالفة إنسان ما لديننا أنه جدير بالبغض أو العداوة، وأن معنى كلمة «كافر» هو **من ينكر وجود إله، وكلمة «مشرك» هو من يعبد أكثر من إله واحـد. وأن العقل يـوجب التسليم بوجود الله وإلا لما وجد الكون، ويوجب التسليم بوحدانيته وإلا اضطرب الكون، ويوجب التسليم بالبعث وإلا اختلَّت الثقة بمعايير الحيـــاة**. وفيما

عدا هذه الأصول فلكل فرد دينه الذي يتبع فيه ـ في الغالب ـ دين آبائه . وهو لا يستحق منا ـ لذلك وحده ـ بغضاً ولا عداوة ، ما لم يناصبنا هو العداء . (١).

فإذا كبر الطفل وصار شاباًّ، وتخطى مرحلة الإعداد الديني الذي يجنِّبه الهزات، فإني أسلم له بالحق في دراسة الأديان الأخرى ـ أيَّاً كانت ـ دراسة أكثر تعمقاً واستفاضة، ليتسع أُفق تفكيره، ويرسخ إيمانه، ويتزود منها بخير ما فيها ـ فهو من ديننا ـ، ويتجنب ما قد يكون فيها من وهم أو خطأ.

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى تفرقة مستقرة لدى علماء مقارنة الأديان بين المؤمنين بوجه عام أياً كان الدين الذي يدينون به، وبين المشركين والكفار. ولذلك قال إن حديثه هنا قاصر على الدين «كعلم». ولا منافاة بين هذه التفرقة الإصطلاحية وبين العقيدة الإسلامية ﴿إنَّ الدين عند الله الإسلام﴾. فإن موضوع الدين «الحق» خارج عن نطاق البحث في هذه الرسالة كما هو بيِّن، وقد أفرد له الأستاذ العشماوي رسالته الثالثة التي تأتي بعد هذه إن شاء الله.

السياسة والاجتماع :

٨ ـ ودراسة النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية أمر لازم، إذ أنها هي التي تحدد ـ أو يمكن أن تحدِّد ـ واجبات الأفراد وحقوقهم، والتي ترسم الإطار الذي يحيط بالفرد ككائن اجتماعي . . ذلك أن الإنسان بطبيعته إنما يعيش في مجتمع يرعاه ويساهم هو في بنائه وإسعاده، ولا يمكن بحال أن يعيش منعزلاً . ومن ثَمَّ وجب أن يحيط علماً بالإطار الذي يحدّه أو يمكن أن يحدّه في مجتمعه .

وإذا كانت النظم السياسية تتأثر قديماً بفكرة الأسرة أو القبيلة أو الوطن أو الدين أو الجنس، فإنها اليوم تكاد تخضع خضوعاً تاماً للنظرة الاجتماعية والمصالح الاقتصادية . . بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الهزة المتطرفة التي أحدثتها المبادىء الشيوعية واضدادها أدّت إلى خضوع كل الاتجاهات السياسية والاجتماعية ـ بما فيها الدِّين والقيم الخلقية ـ للمصالح الاقتصادية وحدها . .

ولكن هذا التطرف ـ ككل تطرف ـ إلى استقرار حين تسيطر القيم الخلقية والأوضاع الاجتماعية الكريمة.

وإذا كان الفتى سيجد ـ في دراسة التاريخ ـ بغيته في معرفة بعض هذه النظم والمذاهب، فإن الأمر لا يغني عن دراسة مستقلة لها، القديم منها والحديث، ما نجح منها وما فشل، ما يطبق في بلادنا وما يطبق في الخارج، ما نسلم به وما نرفضه، يبدأ في دراسته على النحو اليسير وبالقدر الذي يسيغه ويفهمه، والذي يرسم أصول النظرية ومميزاتها دون تفصيل، ثم يتوسع فيما بعد كلما تقدمت به أيام الدراسة واشتد ساعد عقله لإدراك هذه الأمور التي قد لا تخلو من تعقيد واضطراب، خصوصاً وأن أغلبها اختلف في التطبيق العملي عنه في التحديد العلمي.

الآداب والفنون:

أما الذوق والموهبة، فسأترك أمرهما إلى

حديثي عن تحديد مواهب الطفل وتنميتها عن طريق الهواية. وعندئذ أرجو أن أوضح نظرتي إلى حاجة الأبناء إلى الأدب وسائر الفنون.

أما من ناحية العلم، فيجب على الطفل أن يدرس جانباً من الأدب، فيحفظ بعض الشعر ـ مبتدئاً بالبسيط منه ـ وبعض القرآن مميِّزاً أوجه الجمال الفنية فيه، ويقرأ النثر بأنواعه من أدب المقالة والقصة والنقد والبحث ليخطو بعد ذلك خطوات أكبر نحو آفاق الأدب الواسعة التي لا غنى عنها لكل مثقف ذي إحساس.

وقبل أن أختم حديثي عن مواضيع العلم التي يجدر بنا أن نعمل على أن يحصلها أبناؤنا أعترف بأنه من الممكن أن لا نكون نحن أنفسنا قد توفَّر لدينا القسط الوافي منها، فلا أقل من أن نعمل ـ ونحن روادهم في هذا الطريق ـ على استكمال ما فاتنا ـ ولا شك أن لنا من النضوج حالياً ما يجعل الدراسة أيسر علينا حتى لنستطيع أن نستكمل علماً ونعلِّمه في ذات الوقت أبناءنا.

ومن رحمة الله بنا ـ أنتِ والأولاد وأنا ـ أن أبي بجواركم وقد أُوتي بحمد الله علماً غزيراً، وموهبة أستاذية رائعة، فضلاً عن نفس رضية آمنت بالحب والعطاء طريقة وسبيلاً، وهو مستطيع دائماً أن يكمل علمك، ويأخذ بيد أولادنا في الطريــق الســوي.

كيف يحصل أولادنا على حاجتهم من العلم

بقي أن نعلم كيف يحصــل أولادنــا عـلى حاجتهم من العلم. ووسائل تحصيل العلم ـ كما تعلمين ـ هي **الدراسة النظامية، والقراءة الحرة، والملاحظة أثناء التجربة.**

فالدراسة النظاميــة ـ ومـا يتبعها من إقـرار الدولة بالأهلية العلمية للفرد ـ أصبحت أمراً لازماً في المجتمعات الحديثـة، ذلك أن مـا في هذه

المجتمعات من اتساع وتشعب وتعقيد أوجب التنظيم بما فيه من قيود. وهكذا يتخذ تقدم الحضارة دائماً صورة قيود جديدة تفرض على حرية الأفراد بغية تحقيق أكبر نفع منهم لإسعاد أكبر مجموعة من البشر، **فالإنسانية المتحضرة تنقل البشر من حرية الحيوان المرسلة إلى قيود الإنسان الواعي**، بشرط أن لا تزيد القيود إلى حد أن تجعلنا مجرَّد آلات، وإلا انتكست الإنسانية إلى ما هو دون الحيوان. . أعني إلى الجماد.

أقول إن الدراسة النظامية أصبحت أمراً لازماً اليوم، فعلينا أن نوفر لأبنائنا أكبر قسط ممكن منها، وأن نحببها إليهم بما نملك من وسائل الإغراء، وأن نعوِّض ـ بأنفسنا ـ ما قَد نراه من أوجه النقص لدى القائمين بها في المدارس، وأن نسلِّم للطفل بهدف دراسي قريب يتعلق بالمهنة كأن يصبح محامياً أو قاضياً أو طبيباً أو مهندساً أو شيئاً من هذا القبيل، وأن نغرس في نفسه الحرص على بلوغ غاية الدراسة النظامية، لا لأنها تخلق المواهب،

ولكن لأنها تنميها وتدعو المجتمع إلى الاعتراف بها، فإذا كان كثير من الأفذاذ قديماً لم يحصلوا على قسط وافر من الدراسة النظامية، فإن جلّهم ـ إن لم يكن كلهم ـ من ذوي المؤهلات الدراسية في هذه الأيام.

وإذا كانت الدراسة النظامية ستوفر للفتى مفاتيح ما يبغي من أبواب العلم، فقد بقي عليه أن يعالج بهذه المفاتيح باب **القراءة الحرة**.. أوسع الأبواب إلى مدينة العلم. فنحن اليوم في عصر الطباعة، عصر الكتاب والجريدة والمجلة، التي يستطيع الفتى أن يتزود منها ـ متحرراً من قيود الدراسة النظامية ـ بكل ما يريد من زاد المعرفه. وإذا كان الطفل يبدأ في الغالب بقراءة القصص اليسير المشوق، فما ذلك إلا ترغيباً له في القراءة، حتى إذا تكوَّنت لديه عاطفة حب القراءة، اندفع إلى قراءة كل ما يفيده، وما يروقه، وما يعرِّفه بنواحي الخير والشَّرِّ في الحياة.

ولنغرس في نفس الطفل شعور الاحترام نحو

الكتاب، فيحافظ عليه وعلى نظافته ويعمل على وقايته من الضياع أو عبث الغير، وليتجه ـ منذ الطفولة ـ إلى تكوين مكتبته الخاصة التي ستبدأ في نظرنا هزيلـة، ولكنها تكِّون عنده الرغبة في بناء المكتبة والارتفاع بقدرها، ولا تهولنَّكِ فكرة «مكتبة الطفل»، فتتصورين من ورائهـا تكلفة مادية، تَدفع للنجار أو زحمة جديدة إلى البيت.. لا.. فكم من مكتبة بدأت في صندوق صابون أو درج بالبيت أو حتى في صحيفة فارغة.. ثم أصبحت بعد ذلك شيئاً مذكوراً..

وإذا كانت **القراءة الحرة** سبيل الأخذ والاكتساب، **فإن الكتابة الحرة** سبيل التعبير والعطاء.. لماذا لا يكون لكل طفل ـ يستطيع أن يكتب ـ كرَّاسة خاصة يرصد بها ما يشاء؟ ولا يلزم أن يعرضها على أحد، فإذا فعل من تلقاء نفسه ـ وهو سيفعل نتيجة ما يحسُّه من حرية ـ فلنأخذ في قراءتها بالعناية الجديرة بها لنعرف مشاعر الطفل ورغباته واتجاهاته.. ومواهبه أيضاً.

وقد تبدأ كتاباته في هذه الكراسة هزيلة، بل حمقاء وسخيفة. ولكن لا بأس من ذلك، فإنها ستؤهله في المستقبل لتعوُّدِ مصاحبة القلم، وليس كالقلم ـ في المستقبل الطويل المتقلب ـ صاحباً ومعيناً على تفريج الكروب وفتح أبواب الأمل والعمل جميعاً.

وأن تكون القراءة قوام تكوين مادة العلم، فإنها لا تكفي سبيلاً.. فالقراءة ـ وحدها ـ قد تخلق «دودة كتاب» كما يقول الانجليز، «أو «فأر مكتبة» كما يقول شوقي الشاعر.. ولسنا نريد أبناءنا دوداً ولا فئراناً، بل نريدهم أشخاصاً مثقفين سليمي الفهم والتصرف. ومن هنا كانت **الملاحظة أثناء التجربة** عنصراً رئيسياً من عناصر التعلم وتوجيه العلم وجهته العلمية الصحيحة، فبالعمل يمكن أن يكون العلم نافعاً، **وقد استعاذ الرسول** ـ فيما أُثِرَ عنه ـ **من علم لا ينفع**.

وإذا كانت حياتنا ذاتها تجربة ـ أو عدة تجارب ـ بغية الوصول إلى وضع أفضل، بل إذا كان تاريخ البشرية كلها مجموعة تجارب كبرى نحو

السعادة العامة، فإن الطفل لن يبدأ هذه التجارب ـ ولا ما دونها ـ من تجارب علمية إلا بعد أن يخطو خطوات هينة، مأمونة، في تجارب يسيرة، تتفق وسِنّه وطاقته . .

فالرحلة تجربة، تمكِّن له بعض علمه بالتاريخ والجغرافيا والطبيعة، وتزوده بالصور والأحاسيس الأدبية والفنية .

والزراعة وتربية الدواجن تجربة، تؤكد علمه بالحيوان والنبات وتفسح له مجال التفكير في المال . . ووضع ميزانية البيت **أو الرحلة أو الزراعة أو تربية الدواجن أو النزهة تجربة**، تجعل الحساب لديه حقيقة نافعة لا مجرد رموز وأرقام تفرض على ذهنه فرضاً .

وشهر رمضان ومناسبات الأعياد تجربة، توقفه على معنى التفاوت الاجتماعي والاقتصادي وتمكِّن لديه النزعة نحو التكافل الاجتماعي في صورة عملية .

ومشاهدة الأفلام السينمائية والهوايات التمثيلية، والموالد والأسواق تجربة، تطلعه على الكثير من مشاكل الحياة في واقعها.

وأعمال البيت، وعمليات الشراء، ومحاولة الرسم والتصوير والعزف والكتابة، والصلة بالأقارب وبالزملاء في المدرسة.. **كل ذلك وأمثاله صورٌ من التجارب البسيطة** التي يبدأ بها الطفل ويلاحظ تطوراتها وآثارها ليتمكن لديه ما حصَّل من علم على أساس عملي في الحياة.

ولما كان الفشل يمكن أن يكون إحدى نتيجتي التجربة، وجب أن يفهمه الفتى ويسيغه ويتعلم منه كيف يتجنب أسبابه بعد استخلاصها. وكيف يجد فيه ـ مهما تلوّن ـ حافزاً على إعادة التجربة لا على اليأس من النتيجة الفاشلة.

وإذا كان التفاهم والإقناع والمشاركة وسيلة التوجيه الصحيح عموماً كما سبق أن ذكرت لكِ فهي أيضاً توأم التجربة وملاحظة أثرها في

نظري.. فأنا لا أُسلم بالتجربة الفردية المطلقة للطفل على طول الخط، أنا لا أسيغ الرأي الذي كان يقول بأن نترك أبناءنا يخطئون ليعرفوا خطأهم.. فندعهم يشعلون النار في أنفسهم - مثلاً - كي يتبينوا - دون تدخل منا - أنَّ النار تحرق، فإن مثل هذه النظرة بما فيها من جري وراء الخيال قد تودي بالطفل أو تسلمه للهلاك أو العطب الجسدي أو النفسي أو الخلقي، ثم هي تنكر أثر تطور البشرية الطويل وتحاول أن تعود بنا آلاف السنين ليعلم الطفل - من تجربته الشخصية - كل شيء، مغفلة ما وصل إليه الناس فعلاً من حقائق.

ولكني أسلم بالتجربة كوسيلة لتحصيل العلم لدى الأطفال والفتيان ولخلق الاستقلال في شخصيتهم، بشرط أن نلاحظهم في البداية، أو نصاحبهم فيها - أو في الجديد منها - **بالتفاهم والاقناع والمشاركة**. ولكن يجب أن يكون تفاهمنا ومشاركتنا تفاهم ومشاركة أنداد مساعدين لا آمرين

مسيطرين، وأن يكون إقناعنا لهم إقناع محبّ باحثٍ معهم عن الصواب لا إقناع واعظٍ ثقيل على النفس.

وقبلَ أن أنهي رسالتي هذه عن العلم، أرجو أن أوضح أموراً ثلاثة أدفع بها لبساً لا أريد أن يقوم:

الأول ــ أني ــ في تعبيري ـ استعملت لفظ الفتى والشاب جرياً على قواعد اللغة دون قصد إلى التمييز في ذلك بين الفتى والفتاة أو بين الشاب والشابة.. فكلاهما في حاجة إلى كل ما ذكرت من أوجه العلم هنا. وإن كانا يفترقان في بعض النواحي الأخرى فهي أمور سأبينها بوضوح حين أعرض لها.

الثاني ــ أني لا أقصد بتحديد مواضيع العلم ونطاقه وبرسم وسائل تحصيلها أن أُلزم الطفل أو الفتى بدراسة معينة، بل أريد فقط أن أوضح الأساس الذي لا يجوز أن يفتقده مثقف

مهما كانت بعد ذلك حرفته أو كان اتجاهه في الحياة. ثُمَّ إني لم أُلزمه فيها برأي معين، لأن الرأي أمر متأخر يتكوَّن لديه من مواصلته هو للدراسة والبحث، فإني أعتقد أن «**لا إكراه في العلم**» كما أنه ﴿**لا إكراه في الدِّين**﴾، سواء بسواء.

وقد يعتور بعض هذه الوجوه التي ذكرت نقص، وعند ذلك ستنهض طبيعة الطفل لتشير لنا إليها لاستكمالها، وستنهض طبيعته في صورة الأسئلة الكثيرة عن كل شيء سمعه أو قرأه أو درسه أو لاحظه أثناء تجاربه. وهذه الأسئلة ـ فضلاً عن إشارتها إلى أوجه النقص فيما نعطيه من علم ـ هي التي تحدد في الغالب اتجاهات الطفل ومواهبه. ومن ثَمَّ وجب أن نفسح لها صدورنا، وأن نتلقاها كشيءٍ جدير بالتقدير. وما دام التفاهم الحر أساس التعامل الذهني والنفسي بيننا وبين أبنائنا، فإنهم لن يجدوا حرجاً في سؤالنا نحن ـ قبل غيرنا ـ في كل ما يعرض لهم من أمور وما يحتاجونه من إيضاح.

الثالـــث ـ أني إن كنت أمقت التعصب ضد دين المخالفين، فأنا للتعصب ضد علمهم أكثر مقتاً. فالعلم لا وطن له كما يقولــون، فمن أي بلد نستطيع أن نطلبه فلنفعل، ولنفسح له «صدر عقولنا» لفهمه وبحثه وتقـرير رأي فيـه دون تأثـر بعداوة أهله. ولن اذكِّركِ في هذا القول المأثور: «**من عـرف لغة قـوم أمِنَ مكرهم**» لا.. فـذلك موضوع آخر.. بل سأذكرك بهذا القول الذي طالما وقفتُ عنـده كثيـراً أتـأمله وأستنبىء من ظـروفـه معناه.. «**أطلبوا العلم ولو في الصيـــن**».. لماذا في بلاد الصين؟ هل البعد فقط هو الذي حدَّدها ليشير إلى قبول المشقة في سبيل طلب العلم، أم أن وراء «الصين» شيء آخـر؟ شيء مستمـد من معنى الصين في أذهان العرب حين قيل ذلك.. بلاد «يأجوج ومأجـوج» المفسدين في الأرض.. البلاد المغرقة في الضلال الثاوية في قلب ديـار الكفر وهي مع ذلك ذات علم، وعلينا أن نطلبه ـ العلم ـ ولو فيها دون تعصب يعمينا عما قد يكون لدى الضالِّين من علم نافع إن لم ينـر بصيرتهم

فعسى أن ينيـــر الطريـق أمام عيوننـــا.

وإلى رسالة أخرى نكمل فيها حديثنـا، لك حبـــي ودعائـــي.

زوجــك حســن

☆ . . . ☆ . . . ☆

الرسالة الثالثة

التربية الدينية

هذه هي الرسالة الثالثة والأخيرة من رسائل الأستاذ حسن العشماوي رحمه الله في [تربية أولادنا] وموضوع هذه الرسالة هو «التربية الدينية».

وقد يرى القارىء معي أن المسائل التي طرقتها هذه الرسالة من أهم ما عالجته الرسائل كلها في حياة أطفالنا، وتقويم شخصيتهم، وإعدادهم لمواجهة الحياة بما فيها من مختلف الظروف والتغيرات.

ولم أعلق على هذه الرسالة ـ كما فعلت في الرسالتين السابقتين ـ بشيء مؤثراً أن أدع القارىء وحديث الكاتب.. ينظر فيه لنفسه.. ويستغني به عن سواه. وسوف يجد القارىء في هذه الرسالة ـ وفيما سبقها ـ إشارات إلى رسائل أخرى كان

الأستاذ العشماوي رحمه الله ينوي كتابتهـا. غير أن من المؤسف أن هذه الرسائل الأخرى فقد بعضها فلم نعثر له على أثر، ولم يكتب بعضها الآخر أصلاً، إذ حالت ظروف الأستاذ العشماوي بينه وبين كتابتها.

وأنا ـ مع شدة أسفي لذلك ـ أزعم أن في هذه الرسائل الثلاث.. قدراً كافياً يمكننا أن نبدأ به ونبني عليه نظرة متكاملة إلى كيفية تربية أولادنا..

ولعله من واجبنا بعد أن قرأنا هذه الرسائل وأفدنا منها، أن نسعى كي يجد المزيد من تراث الأستاذ حسن العشماوي طريقه إلى النشر لتعم الفائدة منه، وتتحدد النظرة إليه، ويأخذ مكانه في فكر دعاة الإسلام والعاملين له في هذا العصر. رحم الله الأستاذ العشماوي فقد كانت حياته وسلوكه مثلاً صادقاً لمن صدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾.

دكتور محمد سليم العوا

زوجتي الحبيبة . . .

لست أدري لماذا أُشفق على نفسي وأنا أبدأ رسالتي هذه التي وعدت أن أتناول فيها بالحديث «التربية الدينية» . ولولا أني قطعت لكِ على نفسي وعداً بذلك لحاولت أن أرجىء حديث الدين إلى رسالة متأخرة . . ولا أظن أن هذا الاشفاق يرجع إلى قلة معلوماتي الدينية، فإنها ـ برغم قلتها ـ تكفيني فيما أنا مقدم عليه من حديث، وخاصة أن شدة شغفي بهذا الموضوع تيسِّر عليَّ الأمر كثيراً . . فلعل إشفاقي مرجعه شعوري بخطر الموضوع، وأثره في توجيه أولادنا في أكثر النواحي حساسية. فلعل التربية الدينية ـ على أي صورة كانت ـ ترتكز عليها اليوم وغداً أُصول عقيدة الشباب وتصرفاته وأحاسيسه ونظرته إلى الحياة

والموت، إلى الواقع المحسوس والغيب المجهول، وإلى معنى الفضيلة والـرذيلة. . وبـالجملة إلى حقيقة الأشياء، وحقيقة المشاعر، التي وإن خفيت عن الناس، فإن المتـدين يحسُّ أن عيناً سـاهرة ترقبها.

والدِّين بوصفه عقيدة ـ أي إيماناً بوجود قـوة تسيطر على الكون وتسمّى الإله، وبوصفه أسلوباً ـ أي طريقاً إلى التقرب للإله واسترضائه، قديم قدم البشـرية ذاتهـا. . ولكنه كعلم أحـدث من ذلـك بكثيـر.

وقِدَمُ الدين يرجع إلى شعور الإنسان بأنَّ وراء وجوده هو ووراء ظواهـر الطبيعة كلها قوة خفية ـ لا يعرف كنهها ـ تستحق الرهبة منها والرغبـة فيها. ولذلك عبدها، أي أقرّ لها بالسيطرة عليه وحاول التقـرب منها واسـترضـاءهـا لجلب منفعتهـا ودرء خطرها عن نفسه.

وقد تطورت هذه النظرة إلى الإله بين عبادة الأسلاف ـ الآباء والأجداد بوصفهم الموجديـن لنا ـ

وعبادة الأوثان التي ترمز إلى شخص أو معنى أو ظاهرة، والأفلاك من شمس وقمر ونجوم، والحالات من ظلمة وضياء، والمزروعات والحيوانات والناس، بل ووصلت أحياناً إلى عبادة بعض الحشرات رمزاً إلى ظاهرة لم تتضح لهم أسبابها.. حتى ظهرت فكرة الثنائية، إلهٌ للخير وآخر للشر.. ثم التوحيد الذي بدأ متعثراً مغلفاً بحجب المادية إلى أن تطهَّر وأسفر عن تنزيه التوحيد المجرد الذي نؤمن به الآن. ولكن هذا التطور ـ أو التقلب ـ لم يمنع من ظهور بعض العقول تألقت لديها قديماً فكرة التوحيد المنزه وقد حارت من حولها العقول في ظلمة التعدد.. كما لم يمنع من انحراف العقول أحياناً عن استقامة التوحيد إلى تخليط الشرك، أو عن تنزيه الإله إلى تجسيمه على أي نحو كان هذا التجسيم أو ذلك الشرك.

وأُحِبُّ أن أُلاحظ هنا أن فكرة التثليث المسيحية ليست في الأصل تعديداً للآلهة، فإن

كتَّابهم ومفكريهم يعتبرون الله واحداً، ولكنه يظهر في حالات ثلاث: أبوة وبنوة وروح، ولذلك يرمز إليه بها مجتمعة، وهو تبرير لا أُقِرُّه كما قد أعرض فيما بعـــد.

وقد تقرَّب النـاس منذ القـدم إلى الإله ـ أو الآلهـــة ـ بشتى وسائل التقرب، فالمعـابد تقـام، والصلوات تُتلى، والقرابين تُقدَّم من نبات أو حيوان أو أبناء في بعض الأحيان.. والناس يعملون الخير ويذرون الشر على النحو الذي يحدده سدنة تلك الآلهة حسب تفكيرهم أو مصالحهم أو أهوائهم مما يمكن أن نعتبر معه اليوم أنَّ الكثير من خيرهم كان شراً صرفاً.

وإذا كان الدِّين والأُبُوَّةُ صنوان في القدم، فإن التربية الدينية ـ مخطئة كانت أو مصيبة ـ تطابقهما قِدماً، فقد حرص الآباء والأمهات دائماً على أن يجنبـوا أبناءهم كـل المخاطـر ويجلبوا لهم كـل المنافع، فعمدوا ـ ضمن ما عمدوا ـ إلى تنشئتهم

على معرفة وسائل جلب منافع الإله ورضاه واتِّقاء مخاطــره وعقابه.

وإن كان الماديون اليوم ينكرون علينا الإيمان بالله، ويرجعون كل شيء إلى ما أسموه «ديناميكية الـطبيعة» - أعني التـطور الآلي التلقـائي لحـركـة الطبيعة - فإن قولهم هذا لم يغن البشرية شيئاً، وهو أمر لنا إليه رجعة، فإني لا زلت أؤمن بالله، وأؤمن بأن الله خلق في ذات الإنسان شيئاً خفيــاً، يحس ويدعو إلى التسليم بالله، وهذا الشيء - أو النور - يحتاج منـا نحو أبنـائنا إلى مجـرد اتاحـة الفرصة المناسبة أمامه لينمو طبيعياً وينتشـر حتى يضيء حيـاتهم ويجعلهـا - في الــدارين - أكثــر إشراقاً.

ونحن - بحمــد الله - نـدين بــالإسـلام، **والإسلام دين بسيط واضح، لا يصطدم بأي مطلب من مطالب البشريـــة،** ولا يـأبى أي قفزة من قفزات الفكر، ولا يعوق تطوراً يمليه على الإنسان تغير أساليب الحياة، هو دين يقوم جوهـره على

التسليم بوجود إله واحد مجرّد منزّه، بدأ - على أي صورة - النشأة الأولى، يعيد - بعد الموت - النشأة الثانية، لينظر كل منا ما قدّمت يداه.. ثم إن الإسلام ينظر إلى الإنسان ويتصرف معه على أنه بشر، انطوى على النفسين - أو العقلين الباطنين - العليا بنبلها وفضائلها، والسفلى بإسفافها وضراوتها، ثم يحاول أن يجعل القوامة للأولى، لتستقيم الأمور وتنتصر المثل وتصلح حياة المجموع.. ثم إن الإسلام يعتبر غاية رسالته إتمام مكارم الأخلاق التي محكها الصحيح المعاملة، أي التصرف مع الناس حين يضطربون في حياتهم العملية، فلا فضيلة في برج دين أو أعماق كهف.

لا أُريد أن أطيل عليكِ بالمقدمات، فلنقصد مباشرة إلى موضوعنا الأصيل في التربية الدينية، وأعني بها هنا الإسلامية طبعاً.. فنعرض - عند الطفل - لفكرة الله.. واتساع الوجود وتعدد الخلق، فنتعرف على الملائكة وعلى الشيطان ومدى سلطانه علينا، ونفهم مراحل الوجود

من حياة وموت وبعث، وما يتيح ذلك من تساؤل عن فكرة الثواب والعقاب، ونعرض لأسلوب تثبيت القلوب عن طريق دراسة قصص الأنبياء والقرآن، وهذا ما أعني به «العقيدة الإسلامية» ونسعى بعد ذلك وفي رسالة أخرى إلى السلوك الإسلامي فنبدأ بمعرفة العبادات وفهمها والتعود عليها.. ثم ننظر في الأخوة العامة وواجباتها من محبة وحسن معاملة، ونعرف فكرة التحريم وأساس النهي عن الرذائل، وفكرة الأمر وأساس الدعوة إلى الفضائل.. فنعود من حيث بدأنا، لنرى الله، ونفهم غاية الدين.

فالله في أذهاننا اليوم ـ وفي قلوبنا ـ مجرد عن كل تجسيم، منزه عن المثيل، له المثل الأعلى، هي أسماؤه الحسنى لا صفاته، فالصفة إحاطة والاسم إشارة، وتنزه ربي عن الإحاطة به.. وإذا كان هذا التصور مستساغاً اليوم لعقولنا مستقراً في قلوبنا فإنه ليس كذلك بالنسبة للأطفال، فالطفل يريد محسوساً يراه أو يلمسه حتى يسيغ وجوده. أو

يريد على الأقل شيئاً، يمكن أن يتصوره في حدود عقله وخياله، وإلا لأنكر وجوده وإمكان وجوده، من هنا كان تصور الطفل لله رجلاً أو امرأة أو ريحاً أو نوراً أو مزيجاً من هذا كله، وهذا التصور طبيعي وضروري.. ولذلك، فلا محل لتأييده ولا مقاومته تنقل ذهن الطفل من المحسوسات التي يسيغ وجودها إلى غير المحسوسات التي لا تعني عنده غير انعدام الوجود، فتدفعه إلى الاضطراب غير المحمود، ولكن من الخير دائماً أن نرعى تلك الصورة التي سنجدها - دون تدخل منا - في ذهن الطفل بالعناية والتقويم والاتجاه بهدوء نحو التنزيه الذي يسلمنا في الكبر إلى التجريد.

كل منا قد مرّت بذهنه أثناء طفولته صورة ساذجة لله، فلا يجوز أن تفجعنا سذاجة الصورة، وإني لأذكر - حين كنت طفلاً - أني تصورت ربِّي على صورة أبي، جسماً، وخلقاً.. فهو طويل باسم متسق الأعضاء، هادىء الطبع محب محبوب رضي

النفس، لم نر عقابه ولكننا نخشاه لأننا لا نعرف مداه.. وسعدت أياماً بذلك الإله، حتى تدخل التوجيه الخاطىء من بعض الناس حين أكدوا لي أن الله يقبض بيده على أعِنَّة أبالسة وزبانية وشياطين، أشبه ما تكون بالكلاب الجارحة في سلاسلها، وهو يطلقها حسب هواه على الناس الآمنين، تروِّع أمنهم، وتمزِّق جلودهم، وتنهش لحومهم.. وتطورت نظرة خيالي إلى الله، فإذا هو قصير قميء مكشر عن أنيابه، غاضب دائماً وإن لم نغضبه.. فنحن نخشاه ولا نكاد نحبه.. نخشى مجرد وجوده لا عقابه. وهكذا، افترق ربي - في خيالي - عن أبي.. وكدت أكره الله لولا حديث أبويَّ عنه.. حتى جاء اليوم الذي تنساب فيه المعاني من عقولنا - أو من عجز عقولنا - إلى قلوبنا لنؤمن بالله مجرداً.

وإني أروي لكِ تلك الصورة القديمة الساذجة لله في خيال طفولتي، والتي سبَّبت لي فيما بعد الكثير من المتاعب. لتتجنبي وتمنعي أي تدخل

خاطىء في أذهان أطفالنا يوجههم وجهة الخوف من الله.. فليكن الله نوراً مضيئاً، أو شيئاً جميلاً لا نعرف صورته تحديداً. المهم أن يكون تصوره المجسم جميلاً محبوباً يفيض رحمة وعطفاً على الناس. لن يعاقب، ولن يعذب، ولن يبطش بأحد. ولا يسؤوك هذا التصوير، وتظني أني خالفت فيه صفات الله في البطش والعقاب، **فإنه سبحانه يسقط تصورات الطفولة وأعمالها من حسابه الموجب لعقابه، ولكنه يحاسبنا إن نحن روَّعنا أمن الطفولة بالفزع من الله**.. وعلى كل، فإن خير تصور لله عند الطفل أنه نور مضيء.. فإنه أقرب المحسوسات إلى التنزيه والتجريد وأبعدها عن مظنَّة الفزع منه.

وهذا الرب الواحد هو خالق كل شيء.. خلقه واسع كبير، فعلم بعضه وغاب عنا منه الكثير، فالأرض الواسعة بما فيها ذرَّة متواضعة في فضاء السماوات وما حَوَتْ.. وما نعلم من نبات وحيوان وإنسان شيء قليل بجوار ما لا نعلم مما اندثر أو

ما هو آت أو ما يكون في غير عالمنا وأرضنا من العوالـــم والأرضين. وإذا كنا ـ كل يوم ـ نزداد علماً بأشياء وحقائق كانت تشاركنا الحياة منذ القدم ولكنا لم نحسها بحواسنا العاجزة، فلعل المستقبل سيكشف لنا عن أشياء وحقائق أكثر لا محل اليوم لإنكارهـــا لمجرد أننا لا نحسُّها بما لدينا من أجهزة نتدارك بها جانباً من عجز حواسنا في العصور الخالية، ومع ذلك بقيت عاجزة.

وعلى هذا الأساس لا أجد ما يدعوني ـ علمياً ـ إلى إنكار الملائكة والجنّ والشياطين لمجرد عجزنا عن رؤيتها، بل إني أؤمن بها، لأني أثق يقيناً أنَّ القرآن وقد ذكرها هو من عند الله، والله لا يقول إلَّا صدقاً، وبرغم إيماني بهذه المخلوقات غير المرئيـــة، فإني لا أقيم لها كبير وزن، ولا أقابـــل خفاءها بكثيـــر احتفال، ذلك أني أثق أنها مجرد مخلوقات، فهي لا تملك من القوَّة أكثر مما يملك الإنسان ـ أو يمكن أن يملك ـ وليس لها من السيطرة علينا أكثـــر مما لنـــا ـ أو

يمكن أن يكون لنا ـ من السيطــرة عليها. وعلى ذلك فأنا لا أرهبها ولا أخشاهــا، ولا أكاد أُشغِل نفسي بهـا، ولا أُحِبُّ لأولادنـا أن يـرهبـوهـا أو يخشوها أو يُشغلوا أنفسهم بها كثيراً. أنا أُحِبُّ التقيّ المهتـدي منهـا كمـا أُحِبُّ معنى جميـلاً، وأُشفق لحـال الخاطىء منهـا كمـا أُشفق لمعنى الخطيئة، ولكني أعلم أن صلاح الملائكة والجنّ المؤمن لن ينفعنـا إذا ضللنـا، كمـا أنَّ ضـلال الشياطين لن يضرّنا إن اهتدينا، إذ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.

وهكــذا يجب أن ينـظر الأطفــال إلى تلك المخلوقات التي تشاركنا الحياة والعبودية لله، إنَّهم موجودون وإن لم نرهم، ولكن لا شأن لنا بهم إلا فيما تحويه القصص من معان هي أقرب إلى الرمز منها إلى الحقيقة، لأنها خيال لا يصوِّر واقعاً وإنما يتصوَّرُه.

التربية الدينِيّة.. والنفاذ إلى عقل الطفل لإثبات الغيب والبعث وما وراء الطبيعة

كان الإنسان الأول يرى المطر ملكاً راضياً، والرعد ملكاً غاضباً، والبرق عين شيطان تقذف الشرر. أما اليوم، فكلنا يعلم أنها جميعاً وجوه مختلفة لظاهرة طبيعية واحدة، لم تتدخل فيها الملائكة ولا الشياطين، وإنما جرت طبقاً لناموس رسمه الله لتسير الطبيعة عليه في دورتها، وقد قامت الأسطورة على أساس ذلك الفهم البدائي الساذج. وظلت القصة إلى اليوم تستقي من الأسطورة بعض شخوصها ووقائعها وإن هدفت إلى معنى رمزي وراء الواقعة أو الشخصية. ومن هنا،

وجب أن نراعي أن يفهم الطفل لا مجرد القصة، بـل ما وراء القصـة من معانٍ، هي التي تـوجه مشاعره، وفهمه اليوم وغداً.

لعلكِ تذكريـن قصة «عيد ميلاد عثمان» تلك القصـة السـاذجـة البسيـطة التي رويتهـا يـومـاً لأطفـالنـا حين كنت أروي لهم قصص «سـوق الخميس». فقـد كانت تلك القصـة جوابـاً على سؤال يلح على ذهن الأطفال وتنطق به ألسنتهم عن الجن وحاله.. فهم لم يـروه، لكن قصص النـاس عنه تخيفهم منـه، فتحدَّثتُ يـومئـذ عنـه كموجود لا نراه، وجعلت عثمان يراه، ويعيش معه ويأنس إليه، وأشركت الجن في عيد ميلاده إشراكاً حقيقياً رقيقـاً مشوقـاً، وأجريت على لسان الجن من الدعابة ومن المعاني الجادة ما يزيل من نفوس الأطفال الفزع منه، ويدعوهم إلى النظر إليه كما ينظرون إلى غيـره من الناس والطيـر والحيوان.

وعلى هذا الأساس يجب أن ندفع الطفل ـ دون إعنات ـ إلى مناقشة كل قصة رمزية تجري

وقائعها بين الملائكة أو الجن أو الشياطين أو الطير أو الحيوان، أو حتى بين الناس، ليفهم ما وراءها، ويسيغ أن الخير والشر، وأنّ الضر والنفع، قائم في كل شيء، وما علينا إلا أن نبحث عنه ونتبيَّنه لنحقق لأنفسنا ـ ولأكثر الناس ـ ما نستطيع من سعادة.

فإذا انتهى الطفل إلى صورة واضحة غير مفزعة في أُمور ما وراء الطبيعة قبل الحياة فإنه سيواجه أُمور ما وراء الطبيعة بعد الحياة، أعني بعد انتهائها بالموت من بعث وجنة ونار.. فالدين يقرر لنا أننا جئنا من لا شيء أو من تراب، ثم نحن عائدون إلى لا شيء أو إلى التراب.. ولكنها عودة موقوتة إلى حين، يتلوها بعث ـ أي حياة أُخرى ـ ينال فيها المهتدون ثوابهم والعاصون عقابهم. **وقد جعل الدين التسليم بالبعث بعد الموت شرطاً للإيمان لا يتحقق بغيره.**

ولا شكَّ أن فكرة البعث من أعقد أفكار ما وراء الطبيعة التي ابتليَ بها الفكر البشري منذ روى

لنا التاريخ. فقد أنكرها الناس قديماً وأقرّها آخرون. وكذلك الحال في العصور الوسطى ـ أعني عصور الأديان السماوية ـ وفي العصر العلمي الذي نحن فيه.

فحين كان الأقدمون ينكرون البعث ويرون ما بعد حياتنا مجرد فناء يفعله الدهر، كان المصريون القدماء ـ في أغلب شرائعهم ـ يؤمنون بخلود الروح، وبعث الجسد، ويهيئون ـ في سذاجة ـ ما يحتاجه الجسد المبعوث من ضرورات الحياة من مأكل ومشرب وملبس ومال.

وبينما كان الأثينيون ينكرون البعث، ويقصرون عمل الآلهة على الخلق الأول وحده، كان مثل أفلاطون يتحدث عن «عالم المثل» وما فيه من أرواح هي أرواح الأحياء بعد أن فارقوا الحياة الحالية فعادت إلى ما كانت فيه قبلاً.

ثم جاءت الأديان ـ كلها ـ تؤكد فكرة البعث، وتجعلها شرطاً للإيمان، وتفصل فيها، وتبين صور

العذاب وصور الثواب إجمالاً وفي بعض وقائعها.

وجاء العلم اليوم ـ أو بالأحرى منذ مائة عام ـ بالمذهب المادي ينكر البعث، ويراه مجرد تصور لجأ إليه الفكر البشري الساذج ليقي نفسه من هلع النظر إلى الفناء.. فهو ينسج من خياله عالماً آخر يطمئن به نفسه في حياته هذه حتى يواجه الموت مطمئناً بعض الشيء. ومع ذلك، هل واجهت البشرية الموت يوماً مطمئنة إلا في القليل النادر الذي لا حكم له؟.

ووقف الفلاسفة والفنانون والشعراء أمام هذه المشكلة، يدفعهم الشك إلى الإنكار فينكرون، ويدفعهم شعور مبهم في النفس إلى التصديق فيتشككون. وقد يؤمنون.

ولست بحاجة لأن أعرض لهذه المشكلة من نواحيها العقلية والعلمية، لأننا في معرض تربية أطفالنا لا مناقشة الآراء في معهد علمي، ولذلك، لن أقول إلا ما قلته لك من قبل:

يقيناً بأنّا غداً نُبعثُ
لنلقى نتائج ما نُحْدثُ
وإلاّ، لفاز بها الأخبثُ
فكم عاش في نعمة مَنْ غَدَر

وليقل العلماء إنها أوهام شاعر، أو فليقولوا إنها ضرورة الشعور بعدم العدالة في الدنيا، فإني بذلك مؤمن، ولي عن ذلك حديث في معرض غير معرض «تربية أولادنا».

إنما الذي أعنيه الآن، كيف يمكن أن يتصور أولادنا أطوار الوجود قبل أن يشتد ساعدهم في نموهم ليلقوا بأنفسهم في تيارات الفكر المتعارضة عسى أن يبلغوا ذلك الاستقرار النفسي الذي نحسب أننا بلغناه، ونسميه إيماناً.

فلنترك الفلسفة وأقوال رجال الدين جانباً الآن، ولننظر إلى الوجود حولنا بنظرة الطفل البريء الساذجة، ولنرقب ما يمكن أن ترسمه في نفسه الصافية من معان.

إن الشمس تشرق كل يوم فتضيء الدنيا وتحييها، ثم يأتي الليل فيحجبها. أو تغيب هي عنا فتترك خلفها الظلام وحده، هي غداً مشرقة، عشنا لنراها أم رآها غيرنا.

والحبة نودعها بطن الأرض ونسقيها فتنبت، وينمو النبات ويترعرع، ثم يجف ويموت، ويترك لنا حَبّاً آخر إذا أودعناه بطن الأرض عاد لينبت، وينمو، ويترعرع.

ودودة القز نطعمها صغيرة فتكبر، وتكبر، ثم تدفن نفسها في قبرها الحريري، لتخرج بعد أيام، هي هي، فراشة قد تجنحت. لتترك لنا في الصندوق بيضاً صغيراً ثمَّ تموت. فإذا حال الحول، فقَّس البيض الصغير عن دود صغير آخر.. نطعمه فيكبر ويكبر، حتى يدفن في قبوره الحريرية، ليخرج فراشاً يبيض.. ويموت..

وفرخ الدجاجة أو الحمامة يخرج من البيض

صغيراً. فإذا كبر - وكان أنثى - باض مرة ومرات. ثم هو يموت أو يذبح.

وذلك الخروف أو العجل أو الجمل الذي رأينا، ولد يوماً صغيراً حين كنا هناك، وهو الآن كبير. ثم هو صائر إلى الموت مذبوحاً أو غير مذبوح.

وجارنا الشيخ العجوز مات بالأمس. وجارنا الآخر الشاب مات منذ أيام. وطفل الجيران مات صباح اليوم، كلهم وُلِدُوا. وكبروا قليلاً أو كثيراً.. ثم إلى الموت صائرون.

كل هذه الكائنات وجدت، وعاشت حيناً. وتعرضت لما يتعرض له الأحياء، ثم ماتت. فووريت القبر أو البطون أو قاع البحار أو ذراها الريح.. وصارت كأن لم تكن. ولكنها تركت في الوجود شيئاً ملموساً، أو ذكرى في الأذهان موجودة وإن كانت غير ملموسة.

وهكذا تصير هذه الحياة، وذلك الموت،

أمرين ثابتين لدى الطفل بالملاحظة البسيطة، ينظر إليهما نظرة عادية لأنها سُنَّة واقعة من سنن الحياة. ولا أعني بذلك أن يتبلد إحساسه، ولكني أعني أن عين الملاحظة تجعله يثق تماماً أن الموت شق من الحياة لا يمكن أن تكون بغيره. على هذا تدلنا المشاهدة لكل الكائنات في أية صورة كانت.

فإذا نظرنا إلى الإنسان بالذات ـ وهو من يعنينا الآن في فهم مراحل الوجود وجدناه يعيش ويموت. كل من عرفنا قديماً أو حديثاً مات أو سيموت.. يموت الإنسان قتيلاً أو مريضاً أو غير مريض ولا قتيل.. ثم يأوي إلى التراب دفيناً أو غير دفين، فيذهب عنه ذلك السر الخفي الذي نسميه «الروح» أو «الحياة» ليصير بغير حياة جثة أو عظاماً أو تراباً، أو ذرات في الهواء. وتبقى ذكراه في ذهن الأحياء، ينقلونها إلى من يليهم على مر العصور. ويبقى بعد ذلك إحساس ـ غامض أو واضح ـ في ضمير البشرية أنه عائد. ولكن متى؟ هذا ما لا نعلمه، ونقول إن الله وحده يعلمه.

هذا الإحساس ـ الغامض أو الواضح ـ في ضمير البشرية هو السبيل إلى تصور البعث.

إن انتهاء الوجود هكذا بالفناء في صورة الموت ـ أياً كانت صور الحياة والموت ـ أمر غير معقول. والمشاهدة تدلنا على أن الدنيا بأسرها تسير وفقاً لقواعد متناسقة معقولة فكيف يكون وجود الإنسان ـ وهو أعقل الموجودات كما نتصور ـ هو الوحيد غير المعقول؟.

إن العالِم ليقضي حياته ليصل إلى ما ينفع البشرية . ثم يموت.

إن صاحب الرسالة ليبذل دمه وعرقه ليرتقي شأن أخيه الإنسان . ثم يموت.

إن الشهم ليضحي بحياته في سبيل صديقه أو قومه أو الناس. ثم يموت.

وبعد. ماذا يكون؟.

إن الجاهل لينعم بحياته غير آبه بما ينفع البشرية أو يضرها، ثم يموت.

إن النفعي ليستنزف دماء الناس وعرقهم ليحقق مصالحه. ثم يمــوت.

إن الخسيس ليضحي بحياة صديقه أو قومه أو الناس، ليحيا هو، ثــم يمــوت.

وبعد.. ماذا يكون؟.

هل يمكن أن تكون هذه هي فلسفة الوجود العاقل المعقول..؟.

هذا أمر غير ممكن..، ولذلك يُحِسُّ ضمير البشرية أنَّ وراء الموت شيئاً آخر. شيئاً يميز فيه الخبيث من الطيِّب.. ولذلك أعود فأقول:

يقينــاً بـأنَّــا غـداً نُبعثُ
لنلقى نتـائـج مَــا نُحْـدثُ
وإلَّا لفــاز بهــا الأخبثُ
فكم عاش في نعمةٍ مَنْ غَدَر

وهذا ما تـدلنا عليـه المشاهـدة.. وهذا مـا يستقيم ومعقولية الوجود.. وهذا ما ينطق به ـ في

صوت عميق واضح ـ ضميرنا البشري، فيطغى هذا الصوت العميق على عجيج الآلات ولجاجة الماديين من العلماء.

وهكذا يمكن أن نتصور ـ وأن يتصور أولادنا ـ أنَّ الناس كلهم يموتون. . وأنهم جميعاً عائدون.

ولكن، متى، وأين، وكيف نكون، وماذا يصير بنا. . . ؟.

الجواب على هذا كله ضرب في آفاق مجهولة لا أُريد أن أورط ذهن أولادنا ـ ولا أذهاننا ـ فيها، وإلا لكان جوابنا تجديفاً ورجماً بالغيب على غير علم لنا به. وعلى هذا أُوثر أن يفهم الأطفال أنَّ هذه كلها أُمور لا نعلمها يقيناً، ولا يجوز لنا فيها أن نتمسك بظن أو نجري وراء وهم وخيال.

وعلى ذلك، يمكن أن يكون جواب «متى» أنه حين تستنفد الدنيا ـ كلها ـ أغراضها، وهو أمر لا نستطيع أن نحدده. . أجل عندما تستنفد أغراضها ـ بسذاجة ـ كما تموت دودة القز حين تستنفد

أغراضها لتتهيأ لحالة جديدة، لها أغراضها.. فتدفن نفسها لتخرج شيئاً آخر.

وجواب «أين» لا ندري..، لأن الدنيا - الصغيرة - أوسع من أن نحيط بها إلى الآن، فكيف نحدد أمراً قد يكون وراءها.

وجواب «**كيف نكون**» اننا سنكون في أحسن صورة يمكن أن نتصورها دون تحديد.. فكأننا - بسذاجة أيضاً - فراشة دودة القز، إنما تخرج من قبرها الحريري في أبهى صورها التي تكون عليها في كل مراحل وجودها منذ كانت بيضة.

أما «**ماذا يصير بنا**» فهو العدل المشوب بالرحمة.. العدل الكامل المطلق الذي يحاسب الناس على ما فعلوا سراً وعلانية لا على مظاهرهم وحدها.. ويكفي من الرحمة أننا لن نؤخذ إلا بآخر أعمالنا، وأنَّ السيئة ستكون أخف وزناً من الحسنة.

ولما كنا لا ندري متى نذهب عن الدنيا ـ أي متى ستكون آخر أعمالنا ـ فعلينا أن نجعل اليوم أحسن أيامنا عملاً، لأننا لا ندري متى تطوى صحيفة الحياة.

فإذا تقدم بالأطفال السن قليلاً، وقرأوا القرآن وفهموه، فسيجدون في صور العذاب والثواب ما يشيح في النفس الواعية شعور الطمأنينة، وشعور الرهبة معاً.. متعادلين تعادل الميزان استوت كفتاه.

وكلنا يعلم ما لتمثل الخير من أثر في اتِّباعه، فإذا رأى الإنسان ـ أو عرف ـ شخصاً فعل الخير فتمثله واقعاً عاش مثلاً، ومن الممكن أن يعيش، فإنه يسيغ أن يسير في طريقه.. والطفل أكثر حاجة إلى تمثُّل الطريق قبل السير فيه، ومن هنا كانت القصة الواقعية التي تضرب ـ المثل السابق ـ من أفعل الأساليب في تعبيد الطريق في ذهن الطفل ونفسيته ليواصل السير في طريق ما.

ولذلك وجب أن يسمع الطفل الكثير من القصص التي تصور حياة أناس سبقوا في حمل رسالة الخير للناس، من علماء ومصلحين وفلاسفة وذوي رسالات، مهما اختلفت أساليبهم ونزعاتهم، ما داموا ـ جميعاً ـ يضيفون لبنة جديدة في بناء سعادة الإنسانية الساعية نحو الارتقاء.. ولعلِّي قلت لكِ شيئاً من هذا القبيل عند الحديث عن التاريخ.

وليس أولى بالتمثل من قصص أولئك الذين حملوا للبشرية، رسالة الخير والحب والنور، فعاشوا برسالاتهم ولها، وذاقوا حلوها ومرّها.. ثم ذهبوا عن الدنيا تاركين آثارهم فيها، ذكريات وأفكاراً وأعمالاً.. **أعني قصص الأنبياء**، فإني أرى من الخير أن يدخل الطفل إلى لب الرسالات لا عن طريق كتَّابها وفلاسفتها.. بل عن طريق حياة أنبيائها المبشِّرين بها، ثم من تبعهم في الأسلوب لا في الشرح والإفاضة والتحليل، لأن التابع في الأسلوب أقرب إلى الصدق في الدلالة

على حقيقة الرسالة من غيره.

فعلى الطفل أن يتتبع ما نعلم من قصص الأنبياء من لدن نوح إلى محمد.. يعيش معهم، ويسيغ ببساطة ما يفعلون، ويحسّ مرارة وحلاوة ما يذوقون، ويلمس عنت خصومهم وما قابلوا هم به ذلك العنت من سماحة تارة وحزم تارة أخرى، حتى يبلغ معهم ما بلغوا من نصر، وما نال خصومهم من خزي في حياتهم أو بعد أن ولّوا عن الدنيا.. ففي هذا القصص ـ أو هذه القصة المتماسكة المتسقة ـ من الصور ما يشيع في نفس الطفل حب الخير والثبات عليه والاطمئنان إلى المستقبل مهما أظلمت الدنيا.. مع ما فيها من تشويق يزيده إنصاتاً وتأثُّراً..

ولكن علينا أن نتجنب في قصص الأنبياء ما نجده في كثير من الكتب من لغو وأوهام وجري وراء الخيال. فمن الواجب أن تكون القصة معبرة في بساطتها وحقائقها ووقائعها البشرية الأصلية عما يمكن أن تسير عليه البشرية دائماً

من أسلوب. وإلا، لكانت قصص الأنبياء شيئاً بعيداً عن الواقع لا يمكن أنِ يتحقق - إذا سلمنا بتحققه فيما مضى - إلا بتدخل أُمور كأنها السحر، وإن أسميناها معجزة. **أنا أُسلِّم بالمعجزات لأني مؤمن بكتاب الله**، ولكن لا أُعوِّل عليها كثيراً، ولا أُريد أن أحشو ذهن الطفل بها، بل من الانصاف أن نبرز لهم عمل الرسل ذاتهم وأُسلوبهم البشري في حياتهم لأن هذا أقرب إلى روح الواقع من مجرد الاستناد إلى المعجزة. إذ المعجزة ذاتها - حتى في زمانها - قلَّما آمن بها الناس الذين شاهدوها فكيف يُراد أن نؤمن عن طريقها ونحن لم نر منها شيئاً..؟ أغلب الظن أن هذا الأمر لا يأتي إلا متأخراً.

وعلى أساس من قصة حياة الناس - كما سأبين لكِ في رسالة أخرى - يجب أن ندرس النظريات الحديثة التي تنظم المجتمع. فإنا لن نفهم الماركسية أو الاشتراكية أو الديموقراطية ما لم ندرس حياة دعاتها الأوائل.. ولن نفهم أسلوب

روسو في التربية أو أُسلوب فرويد في فهم النفس ما لم نعلم كيف عاش «روسو» وكيف عاش «فرويد» وما مدى تأثير كل واحد منهما بتعاليمه.

ويأتي بعد ذلك كله ـ أو مع ذلك كله ـ كتاب الله. القرآن الكريم الذي نتخذه نبراساً يضيء لنا السبيل إلى العقيدة الحقة، ومنهاجاً يرسم لنا أصول تصرفاتنا في الحياة، ورباطاً يجعلنا نحسُّ في حياتنا بالصلة الدائمة بخالق الحياة فنتهيأ لها ولما بعدها.

ولي معكِ حديث طويل عن القرآن. ولعلي مستطيع يوماً أن اقرأ معك ـ ومع الأولاد ـ القرآن ولو على البُعْد، بأن أكتب لكِ ما أوصيتني أن أكتبه حول كتاب الله(*). ولكن الذي يعنيني الآن أن أؤكد عليه هو أن يظل الطفل ـ منذ البداية ـ على

(*) راجع كتاب [مع الله.. زاد الرحلة الأولى في كتاب الله] للمؤلف نشر دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

صلـــة بالقرآن ، يحفظ منه ـ دون إرهاق ـ الشيء القليل، ويفهم ما يحفظ على نحو يتفق وإمكانيته الذهنية، ويتطور حفظه وقراءته وفهمه شيئاً فشيئاً متدرجاً إلى الفهـم الأعمق كلما كبر. ولكن يجب أن يكـون فهمه من البـداية صحيحـاً بعيـداً عن الأوهام والخرافات والتعصب. فلا يجوز أن يفهم بعض الآيات على نحو غير صحيح استناداً إلى أنه صغير السن لا يستطيع أن يفهم على النحو الذي نفهمه نحن. فمن الممكن دائماً أن يفهم فهمـاً صحيحاً مبسطاً، حتى يحس حيـــن يكبر أنه يزداد فهماً، لا أنـــه يطرح خرافة كـــان قد أُفهم إياهـا وهو صغير. فإن الشاب إذا استقر في ذهنه أنه كان يفهم من القرآن معاني غير صحيحة، تشكَّك في القـرآن ذاته، لا في صحـة فهمـه السـابق، وسيكون حاله عندئذ كحال أولئك المتدينين الذين اضـطربت نفوسهم أمـام نظريـات العلم الحديث لمجرد أنها خالفت فهمهم الخاطىء لأديان كتبهم المقدسة، واضطراب نفوسهم لم يسلمهم إلا إلى إنكـار العلم في تعصب، أو إنكـار الـدين في

إلحاد.

إن حرص الفتى والفتاة على قراءة قليل من القرآن، والبقاء على صلة دائمة بكتاب الله الذي أنزله على قلب محمد لهداية البشرية، هو السبيل الأصيل للرقة والرفعة والرفق إلى قلبه، فتتمكَّن العقيدة منه على نحو لا نخشى عليه حين يلقى الحياة بما فيها من خير وشر.

وإلى رسالة أخرى، نعرض فيها للسلوك في التربية الدينية.

لَكِ أعمق حبي وخالص دعائي...

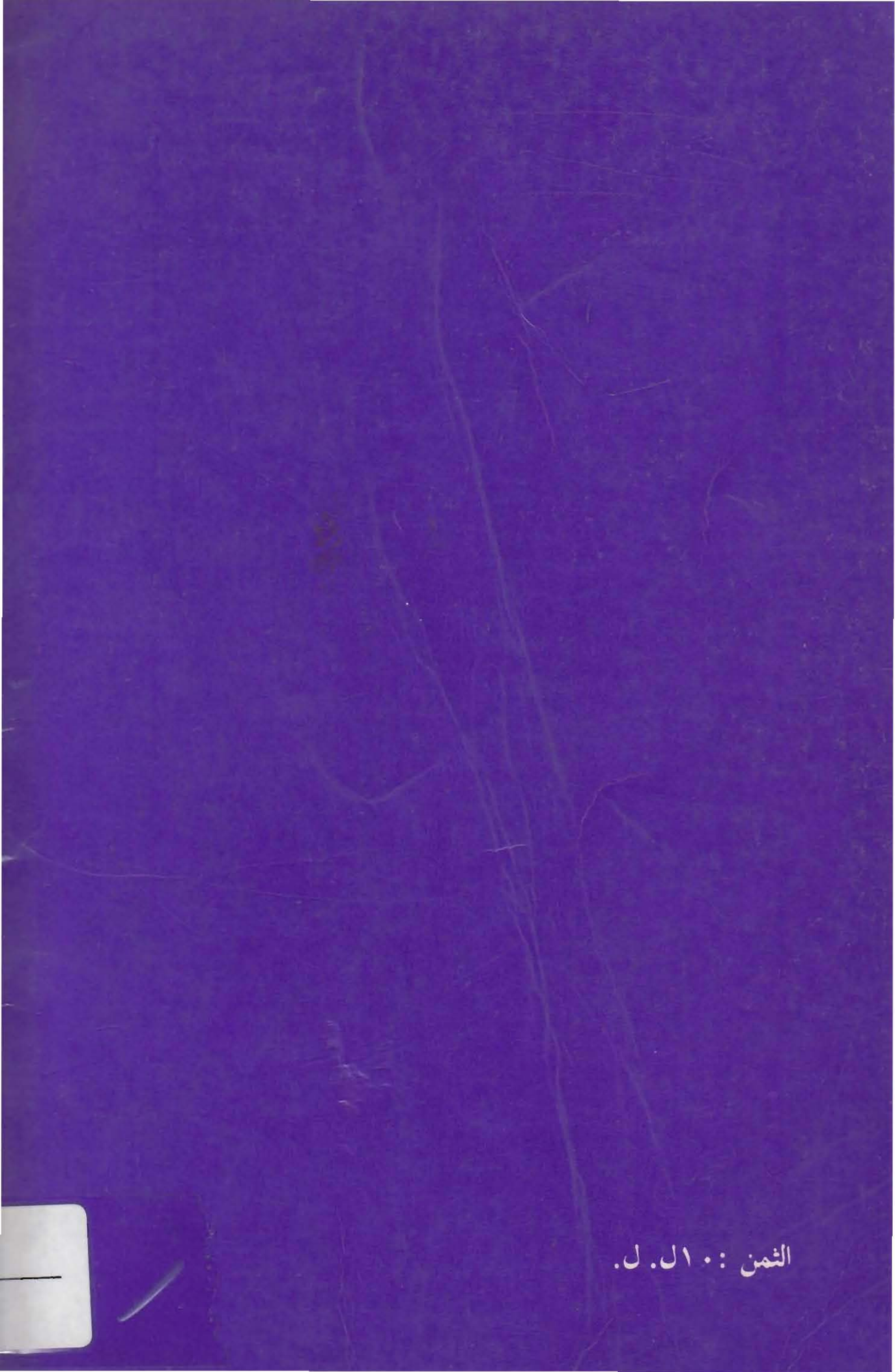
٢٥ ـ ٢ ـ ١٩٥٥ زوجك : حسن

☆ .. ☆ ... ☆ ... ☆

محتويـــات الكتاب

حسن العشماوي

- من مواليد المنيا (صعيد مصر) عام ١٩٢١.
- أتمَّ دراسته القانونية عام ١٩٤٢، وتخصَّص بعد ذلك في القانون الخاص والشريعة الإسلاميـة.
- مارس أعمال النيابة العامة والقضاء والمحاماة في مصر، ثم اختير عضواً في لجنة وضع الدستور المصري في يناير ١٩٥٣.
- اشتغل بالإصلاح الاجتماعي والحـركة العمـالية والنشاط السياسي خلال الحركة الإسلامية التي انتهى إليها في أوائل الأربعينات.
- اشتغل بالقانون تدريساً وتطبيقاً وتشريعاً في البلاد العربية خلال الخمسة عشر عاماً الأخيـــرة.
- له تفسير للقرآن الكريم نشر منه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران تحت عنوان (مع القرآن. . زاد الرحلة الأولى في كتاب الله).
- وله تفسيـــر (سورة الإسراء).
- ومن تراثه المنشور [قلب آخر . . لأجل الزعيم] مسرحية مع مناقشة حرّة بعنوان «الفرد العربي ومشكلة الحكم».
- كما كتب عدة رسائل في التربية بعنوان [هكذا نربي أولادنا].


الثمن : ١٠ ل. ل.